غرائب المجرّة



غرائب المجرّة

الكتاب: غرائب المجرة

المؤلف: جوزيه موزيلي

قصص

ترجمها عن الفرنسية: مدين حرامي

العنوان الأصلي للكتاب والمؤلف والناشر باللغة الفرنسية لأول طبعة

La cité du gouffre suivi du messager de la planète

José Moselli

(1924)

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية

info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الأولى 2026

الترقيم الدولي: **978-1-291-55012-2**

التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

La cité du gouffre suivi du messager de la planète

Author: José Moselli

Short Story Collection

Translate it from french to Arabic

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

Interior and Cover: Design: Jidar for Sustainable Solutions.

ISBN: 978-1-291-55012-2

جوزيه موزيلي

غرائب المجرّة

قصص

ترجمة مدين حرامي

مقدمة المترجم

في هذا الكتاب، يفتح لنا جوزيه موزيلي (1882 – 1941)، الاسم المستعار للكاتب الفرنسي جوزيف تيوفيل موريس موزيلي، أبواب الخيال والمغامرة بأسلوبه الممزوج بالتشويق والأدب. وُلد موزيلي في باريس في 28 آب 1882، وعاش حياةً أدبية خصبة، كتب خلالها الروايات البوليسية، وأدب الخيال العلمي، وقصص الطفولة والشباب، فضلًا عن الحكايات الشعبية المفعمة بروح المغامرة، قبل أن يرحل في 21 يوليو 1941 بمدينة لو كانيه.

يضم كتاب «غرائب المجرّة» روايتين قصيرتين نابضتين بالدهشة والاكتشاف. في «مدينة الهاوية»، فننزل مع الراوي إلى أعماق المحيط عبر شهادته كناجٍ من الغرق قبالة سواحل الصومال، حيث يلتقي كائنات ذكية تعيش في ظلمات البحر العميق. أما في «رسول الكوكب»، يقودنا الكاتب إلى أقصى بقاع الأرض، حيث يواجه عالِمان في رحلة استكشافية إلى القطب الجنوبي حدثًا خارقًا: سقوط نيزك غامض يسكنه كائن فضائي، لتبدأ محاولة التواصل بين عالمين يفصل بينهما أكثر من مجرد المسافة.

بأسلوب يشد القارئ الفضولي، يعيد موزيلي إلى الأذهان روح جول فيرن وسحر مغامراته، جامعًا بين دقة الخيال العلمي وإثارة الحكاية، ليمنحنا رحلتين أدبيتين تستحقان أن تُقرأ بلهفة وانبهار.

مدينة الأعماق

هناك عددٌ من حالات الهلوسة الجماعية الخاضعة للرقابة. لكن الأدلة كلها تُشير إلى أن ما حدث على متن سفينة الشحن أريادن القادمة من بوردو، حقيقي.

القبطان ميرسييه الذي يقود هذه السفينة؛ هو رجلٌ هادئٌ ومتوازنٌ ومعروفٌ برباطة جأشه. عُيِّنَ الملازم موريس قبطاناً منذ فترةٍ طويلةٍ، وهو الأول في ترقيته. كبير مهندسي أريادن؛ جيرار فوك، هو رجلٌ هادئٌ في الخمسينيات من عمره. القبطان الثاني؛ جاك ميشيل، معروف ببعض الأعمال الفلكية التي منحته شرف تقديمها إلى الأكاديمية الفرنسية للعلوم.

الجميع متفقون؛ إذ إنهم رأوا وسمعوا. علاوة على ذلك، فإنَّ سجل التقرير البحري للقبطان ميرسييه، الذي وقعّه رجلان من الطاقم، يشهد على أنه حدثٌ حقيقيٌ لا جدال فيه - لكن لن يصدقه أحد.

عند الساعة الخامسة مساءً، كانت السفينة أريادن، وهي سفينة شحن مُحمّلة بستة آلاف طن من الأرز في سايغون متّجهة إلى نانت، تبحر في خليج عدن، عندما أبلغ الملازم موريس الذي يقوم بورديّته، بعد ساعتين من الدوران حول رأس غاردافوي المشؤوم، حيث لاقت عددٌ من السفن هلاكها، القبطان ميرسييه أنه رأى لغماً عائماً!

لغمٌ عائمٌ في خليج عدن؟!

اعتقد القبطان ميرسييه أن مرؤوسه رأى الشيء الخطأ. فانضم إليه على جسر السفينة، وميّز في اتجاه الغرب، على الطريق الذي تسلكه سفينته، كرةً حمراء تتمايل على الأمواج المتلاطمة.

هل هو لغمٌ، أو ربما عوّامة ميناء منجرفة؟

اقترب القبطان ميرسييه بسفينته من الآلة الغريبة ولاحظ ما بدا لغماً عائماً، كان لغماً قديماً تكسرّت معظم قرونه،[1] ويعود لونه الأحمر إلى الصدأ الذي يأكل جدرانه.

كيف لم يغرق؟ إنها أُحجِيَّة!

ومهما كان الأمر، فإنه يشكّل خطراً رهيباً على الملاحة.

لذا أمرَ القبطان ميرسييه، بإيثار البحارة هذا، الملازم موريس بمحاولة إغراق الآلة بطلقات بندقية.

كان موريس، وهو شاب باريسي في الخامسة والعشرين من عمره، تخرج حديثاً من مدرسة علم المحيطات، رامياً جيداً. مستفيداً من حقيقة أن السفينة أريادن كانت على بعد مئة وخمسين متراً تقريباً من الكرة الغامضة، أطلق عليها بضع طلقات متتالية، من دون أن يخطئ؛ أربع طلقات في المجمل.

[1] نتوءات صغيرة تحتوي على صواعق اللغم.

ولدهشة الجميع، اصطدمت الطلقات الثلاث الأولى بالآلة، وخرج غبارٌ من الحطام الأبيض من تأثير الاصطدام. ألم تكن العوّامة أو اللغم مصنوعاً من الحديد؟ فمن بعيد، بدا وكأنه من الجصّ!

أحدثت الرصاصة الرابعة تأثيراً أكثر غرابةً؛ إذ سُمعت قرقعةٌ حادةٌ تشبه صوت فرقعة قِدرٍ، وتطايرت العوّامة، أو أيّاً كانت، إلى أجزاءٍ، ولكن من دون أن تنفجر!

دوَت صيحاتٌ أطلقها بحارة أريادن المحتشدون على سطع السفينة العلوي ليشهدوا العملية بشكلٍ أفضل: كانت العوّامة مجوّفة وتحتوي على كائنٍ بشري...

شاهده الجميع للحظةٍ وجيزة فقط: كائنٌ يرتدي ملابس ممزقة، ويرفع يديه إلى جمجمته الدموية. وعلى الفور أطبقَ عليه البحر وعلى حطام الكرة الغريبة...

أمرَ القبطان ميرسييه بإنزال زورق إلى البحر في الوقت نفسه الذي أمرَ فيه بإيقاف السفينة، ثم الرجوع.

لم تُنفذ مناورة بشكلٍ أسرع قط!

في أقل من دقيقتين، أُحضِرَ الزورق الذي تولى قيادته القبطان الثاني لأريادن؛ جاك ميشيل، وأربعة بحارة أقوياء، حتى قبل أن تتوقف سفينة الشحن بالكامل، أبحر في الاتجاه التقريبي حيث اختفى حطام الكرة الحمراء والرجل الذي كان بداخلها.

دوامةٌ طفيفةٌ، محاطةٌ بشريط من الرغوة، ما تزال تشير إلى موقع الكرة.

صاحَ البحّارة الذين بقوا على متن سفينة أريادن، والذين، نظراً لارتفاعهم أكثر من ركاب الزورق، كان لديهم مجال رؤية أوسع: «هناك! هناك على يسارك... هكذا!».

قطعَ الزورق الخفيف الذي يطفو بفضلِ مجذّفيه، الأمواج المتلاطمة كما لو أنه يتنافس في سباق. في الخلف، كان جاك ميشيل واقفاً يتحكّم بالدفة بكاحليه، ويوجّه الزورق نحو نقطة سوداء رآها لتوّه، لكنها غابت عن بصره على الفور: رأس الغريب، بلا شك... لم يكن مخطئاً.

على الفور تقريباً، ظهرَ الرجل مرةً أخرى وهو يكافح بشكلٍ متشنّجٍ. كان على وشك أن يختفي ثانيةً – وللأبد! عندما نجحَ أحد بحّارة الزورق بالإمساك به من شعره.

أراد الرجل الذي كان شبه فاقد للوعي أن يكافح. لكن البحّار هدّأه بلكمةٍ قويةٍ على وجهه، ورفعه ووضعه في الزورق بمساعدة رفاقه.

كان الرجل البائس يرتدي خرقاً بدَت مهترئة بسبب بعض الأحماض. وكان سرواله وقميصه، ملابسه الوحيدة، ممزقَين وفقدا أيّ لونٍ واضح. وتراوحت ألوانهما من الأسود إلى الرمادي، مروراً بالأخضر الداكن والبني الأحمر.

كان الغريب مغطى بالكدمات. التصقت قشورٌ من الدم الأسود بأذنيه، بعينيه، بزوايا شفتيه؛ لكنّ الحَمَّام الذي تلقاه كان كافياً لإزالتها.

دفع القبطان الثاني لأريادن البحّارة جانباً وانحنى على الشخص الغامض قائلاً: «إنه على قيد الحياة! هذا هو الأمر الرئيس! ضعوه في الخلف... هناك! ساعدوني! جيد جداً! والآن، إلى مجاذيفكم جميعاً، أبحروا نحو السفينة!». وأطاعَ البحّارة الأمر بحماسٍ.

جاك ميشيل الذي جلس بجوار الجسد الخامل للغريب الغارق، وجّه الزورق نحو أريادن، التي كانت على بعد حوالي نصف ميل؛ أي أقل من كيلومتر واحد، حيث عبره الزورق بسرعةٍ قياسية.

رسا الزورق تحت سلم سفينة الشحن الذي فُرِدَ في هذه الأثناء.

تجمّعَ القبطان ميرسييه، وكبير المهندسين فوك، والطبّاخ، ومسؤولو المراجل والبحّارة، أمام المنصة العليا للسلم، ينتظرون، ويتبادلون التعليقات بصوتٍ خافتٍ.

وكان الملازم موريس الذي تحتجزه خدمته على سطح السفينة، يراقب أيضاً...

حمل رجلان الغريب من القارب، ووضعاه على سطح السفينة الخلفي.

انحنى القبطان ميرسييه الذي كان طبيباً بسيطاً (بقدرٍ متواضع!)، عليه على الفور، وفتح قميصه، ووضع أذنه على صدره، واستمع.

ساد صمتٌ مميتٌ.

تذمّرَ قائد أريادن وهو يقف: «إنه على قيد الحياة! لكن قلبه غير منتظم بشدة.. يبدو وكأنه رافعة ينقصها الضغط! سيد ميشيل، انطلق مرةً أخرى، من فضلك، واستدر

شمالاً أربع أو خمس درجات عن المسار المحدد... التيارات هنا غادرة، ولا أرغب في أن نُحتجَزَ بشكلٍ كاملٍ!».

اتجه القبطان الثاني الذي وُجِّهَت إليه هذه الكلمات نحو جسر السفينة، وأعرب عن استيائه قائلاً: «نعم أيها القبطان!». بدا غاضباً لأنه كان يودُّ البقاء ليسمع ما سيقوله الناجي...

نقلَ القائد ميرسييه على الفور الغريب إلى عليّة السفينة الصغيرة المقامة على سطح السفينة، والتي تُستخدم كمقصورة لمالك السفينة عندما يسافر على متنها.

مُدِدَ الرجل على السرير النحاسي؛ نزعَ كبير الخدم الأسود؛ كابرون، ملابسه وغسل وجهه وألبسه قميصاً نظيفاً.

بعد ذلك، حاول القبطان مرسييه إيقاظه؛ كانت المهمة صعبة للغاية. ووضع على التوالي تحت أنفه زجاجة من الأثير، ثم زجاجة من الأملاح الإنكليزية. ثم سكب في حلقه بضع قطرات من نوعٍ معيّنٍ من كحول قصب السكر اشتُري في سنغافورة وهو أكثر تآكلاً من الكبريت. لكن من دون جدوى!

فركه كابرون، وهو رياضي هائل، ودلّكه وهزّه من دون أيّ نجاح.

ومع ذلك لم يكن الرجل ميتاً. بدا قلبه، في بعض الأحيان، وكأنه متوقّف. لم يعد مرسييه يسمعه. في اللحظة التالية، بدأ قلبه ينبض مرةً أخرى بشدةٍ هائلةٍ، واهتزَّ صدر البائس المسكين، ولكنه ظلَّ فاقداً للوعي.

لم يكن القبطان ميرسييه، وهو من أصولٍ من مدينة نانت، يتمتع، من بين صفاته المتعددة، بالوداعة أو الحساسية، ولا الصبر أيضاً. فنادى: «يا فتى المقصورة! اذهب وأحضر لي بعض القطن وزجاجة من الكحول الروحي من مقصورتي!». وهكذا أسرع فتى المقصورة وسرعان ما عاد بالأشياء المطلوبة.

أخذ مرسييه كتلةً من القطن، ووضعها بين أصابع يدِ الغريب اليسرى، وضغطَ عليها باستخدام خيطٍ من القطن، ثم سكبَ ما يعادل نصف كأس من الكحول الروحي، وأشعلَ فيها النار.

اشتعلت قطعة القطن، وأزَّ لحم أصابع الناجي.

فقفزَ الرجل بشكلٍ عنيفٍ. فتح عينيه وجلس صارخاً: «رعدُ الجحيم!».

صاح ميرسييه بعدما أمسك بأصابع البائس المحاط باللهب في يده الكبيرة وأخمد النار: «أوه! إنه يتكلم! الأمر يسير إذاً...».

كان الرجل يرتجف بشكلٍ عنيف. بفمٍ مفتوح، وعينين مستديرتين، ووجهٍ يعبّر عن رعبٍ لا يوصف، نظرَ حوله، كما لو أنه يجد صعوبة في إدراك الحقيقة. وهمسَ: «حلمتُ!».

تساءل ميرسييه، مندهشاً من هذه الكلمات غير المتوقعة: «حلمتَ بماذا؟».

لم يرد الرجل. كشف حاجباه المجعدان وتجاعيد جبينه العميقة أنه كان يفكر بتأملٍ شديدٍ.

انتهز ميرسييه الفرصة لفحصه. إذ دلَّ مظهره على أنه في الأربعينيات من عمره. وكانت لحيته وشاربه، اللذان يحتاجان إلى حلاقةٍ متقنة، طويلين بحوالي سنتيمتر واحد. أظهر الشعر النادر بعض الشيب. كان الجبين مرتفعاً، والعينان عميقتين تحت عظمة الحاجب، والأنف القوي بعض الشيء مغطى بعروقٍ حمراء، والفم ذا تجاعيد ساخرة ومحبطة. علاوة على ذلك، كانت ملامح وجهه ذكية ولكنها غير ودّية.

فكر ميرسييه، بعدما قدّمَ للناجي الغامض كأس الكحول الذي جعله يشرب منه بضع رشفات بالفعل: «أنت يا صديقي... لا بد أنك تحب كحول قصب السُّكر!».

نظرَ إليه الرجل، وأخذ الكأس متردداً قليلاً، ثم أفرغ الوعاء بجرعةٍ واحدةٍ.

سأله ميرسييه: «هل تشعر بتحسّن؟».

عبسَ الغريب مرةً أخرى، ونطقَ بصوتٍ أجش: «هل أنت فرنسي؟».

ردَّ قبطان أريادن بصراحة: «كما تقول يا صديقي! وأنت؟ هل ستخبرنا ماذا كنت تفعل في هذا اللغم... في هذه العوّامة؟».

- أيّة عوّامة؟

- الكرة التي كانت بمنزلة قوقعتك؛ الطوّافة!

- الطوّافة؟

- نعم الطوّافة؛ الكرة الحمراء التي اعتقدناها لغماً عائماً، ودمرناها برصاص البندقية... كنتَ بداخلها!

لم يرد الرجل مرةً أخرى. هزَّت جسده رعشةٌ جعلت عينيه تسحبان في محجريهما. نظر الناجي إلى ميرسييه، ثم إلى القبطان الثاني جاك ميشيل الذي دخل للتو، ثم إلى فتى المقصورة. وهمس: «إذاً... لم أكن أحلم!».

قال ميرسييه: «حلمتَ! آه! يجب أن نشرح لكَ... هل ترغب في كأسٍ آخر من الشراب، أو في الأكل، أو الراحة؟ عندما تشعر بالتحسّن، ستخبرنا عن نفسك أكثر! أنتَ هنا في أمان! اهدأ!».

لم يرد الرجل. بدأ قلبه ينبض بشكلٍ متشنج مرةً أخرى، بقوةٍ لدرجة أنه تجعل خفقان القلب يظهر من خلال القفص الصدري. انقبض حلقه، وارتفعت تفاحة آدم وكأنه يبتلع ريقه، وطلبَ: «الشراب!».

ملأ ميرسييه الكأس وناوله إياه، فابتلع محتواه بشراهة. احمرّت وجنتاه، وتعمّق الخط الساخر في فمه، وقال: «إذاً، وجدتني في كرة... في عوّامة؟».

أوضح ميرسييه: «بالضبط!». ثم شرحَ، في بضعِ جمل ما حدث منذ اللحظة التي رأى فيها الملازم موريس الآلة الغامضة.

أومأ الرجل برأسه. ضغط على قلبه المضطرب وهو يتمتم بصوتٍ متقطع: «أستطيع... كذلك أن أخبرك بكل شيء... إنها نهايتي...! في أي لحظة الآن، ستنفجر الآلة! ففي نهاية المطاف، سيكون الأمر أفضل بهذه الطريقة؛ أنت تموت مرةً واحدةً فقط، والحياة لا تستحق الندم!». توقف الغريب. كان يلهث، ثم تابع: «اسمي فيليب راكييه... مهندس.

تخرجتُ في المرتبة الأولى... ولكن ماذا يهمك ذلك...؟ الحياة مسألة حظ أو بؤس... مسيرة تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت: نسعد عندما نواجه ظروفاً مواتية، ونصبح بائسين في خلاف ذلك...

كنت محظوظاً في البداية؛ قمتُ بدراساتٍ جيدة، وأصبحت مهندساً. أحببت الحياة الواسعة. طلبتُ وحصلتُ على وظيفة في السكك الحديدية في إثيوبيا، ثم في أمريكا الجنوبية... لكن هذا لن يثير اهتمامك.

وأخيراً، بدأت في الشرب! لماذا؟ لأنني أحب الكحول! بعض الناس يحبون البازلاء وبعضهم الآخر يحب المحار... ولا يوجد تفسير لذلك!

لكن الكحول شريكٌ فظيعٌ! لكي أحصل على الثمالة الطفيفة التي أبحث عنها، كان عليّ زيادة الجرعات بسرعة... ولاحظ الناس ذلك، على الرغم من أنني أديت واجبي من دون تقصير. لذا فقدتُ تباعاً وظائفي... والوظائف الأصغر بشكلٍ متزايد..

ولكنك تتساءل ما علاقة كل هذا بانتشالي من الماء؟ سأشرح الأمر.

أخبرتك أنني فقدتُ وظائفي جميعها تباعاً. وانتهى بي الأمر بالعثور على وظيفة في غلاسكو كممثلٍ للأدوات الصحية. ولكن في أحد الأيام وأنا في حالة سَكَر، ارتكبت خطأً في عملية التسليم. وأخيراً، وجدتُ نفسي على الرصيف مرةً أخرى.

وقعتُ في أدقعِ حالات الفقر. نمتُ في الملجأ الليلي عندما كان هناك مكان. حقيقةً؛ حين لا يكون لديك مأوى، ولا تمتلك ملابس لائقة، فمن المستحيل العودة إلى المسار الصحيح...!

حتى لا أموت من الفقر، كنت سعيداً بالعثور على وظيفة عامل تزييت المحركات على متنِ سفينة بخارية إنكليزية... لكن في ملبورن، سكُرت في رحلتي الأولى إلى الشاطئ، فأعطوني حقيبتي.

كنت محظوظاً! إذ بُنِيَ خط سكة حديد بين سانت كيلدا وبوكستون، على سهلٍ موبوء بالملاريا. كان المهندسون يموتون واحداً تلو الآخر. ولم يكن هناك من يحلّ محلهم، فأظهرت شهاداتي، وعُيِّنتُ براتب قدره خمسون جنيهاً شهرياً. كانت صفقةً رائعةً!

احتفظتُ بوظيفتي لمدة سبعة أشهر، حتى جاء سوريٌّ لينصب مقهاه على طول الخط الحديدي. باع الويسكي الفاسد الذي سمَّمَ العمال. لكن بالنسبة إليّ، قدّمَ بعض الكونياك الأصلي الذي لم أتناول مثله منذ شهور.

غضضتُ الطرف عن تجارته، وأشبعتُ شغفي بالكحول. مرَّ مفتشٌ من الشركة، وكنت في حالة سَكَر. أُعدتُ إلى ملبورن، حيث وجدت نفسي في الشوارع وفي جيبي مبلغ ثلاثمئة جنيه وسمعتي السيئة منعتني من البحث عن وظيفة أخرى في أستراليا بأكملها».

توقف فيليب راكييه. ضعف صوته وأصبح مبحوحاً أكثر. وفي بعض الأحيان كان قلبه يقفز في صدره. تصلّب وجهه، مما يشير إلى الجهد الرهيب الذي بذله في التحدّث مرةً

أخرى. ثم تابع: «في إحدى حانات شارع بيت، التقيتُ بالإيرلندي جيمس أوبالدي، وهو سَكَيرٌ مثلي، كنت أعرفه في أثناء انتظاري في الطابور أمام الملجأ الليلي في غلاسكو... شربنا وتحدثنا. لكي أكون مختصراً، سأخبرك أن أوبالدي قال لي أنه يعمل خادماً على متن السفينة الإنكليزية تايمز، التي كان من المقرر أن تغادر في اليوم التالي إلى أوروبا.

كنا نعرف بعضنا جيداً، أوبالدي وأنا. ولهذا السبب أسرَّ إليّ من دون تردد بندمه: كانت التايمز تحمل صناديق عدة من الياقوت والأوبال بقيمة تزيد عن مئتي ألف جنيه إسترليني!

شُحِنَت هذه الأحجار الكريمة سرّاً في اليوم السابق، ووُضِعَت في قبو التايمز، وهي غرفةٌ صغيرةٌ ذات جدرانٍ محصَّنة لا يمكن الدخول إليها إلا عن طريق غرفة مراقب حمولة السفينة.

مئتا ألف جنيه من الأحجار الكريمة! أصبح أوبالدي شاحباً عند التفكير في ذلك. لو كان لديه شريكٌ، رجلٌ موثوقٌ، فإنه متأكد من الاستيلاء على هذه الثروة... لكنه كان بحاجة إلى مساعد، مساعد قادر، إذا لزم الأمر، أن يكسر باب الغرفة المحصَّنة...

يمكنني أيضاً أن أخبركم، أيها السادة، أنني خلال حياتي البائسة في إنكلترا، قمتُ مع أوبالدي ببعض عمليات السطو البائسة... والتي لم تجلب لي الشيء الكثير.

سمعتُ ما أراد أوبالدي قوله لي. بدت القضية مثيرة للاهتمام بالنسبة إليّ. مع بعض الأسئلة التي أجاب عليها الإيرلندي بوضوح، أدركتُ أن السرقة ممكنة وأنني أستطيع

بسهولةٍ إخفاء المسروقات... ولهذا السبب، تعيّن عليَّ أن أبحر على متنِ التايمز. وهذا ما فعلته.

اشتريتُ ملابس جديدة وبعض الأدوات الضرورية: كماشة فولاذية من المنغنيز، وسلسلة مفاتيح زائفة، وحتى شعلة أوكسيهيدرية صغيرة، وحصلت على تذكرة من الدرجة الأولى إلى السويس. وفي السويس بدا لي أنه من الأسهل بالنسبة إليّ النزول والاختفاء بمجرد الانتهاء من العمل.

غادرت سفينة التايمز... بقي في جيبي جنيهان إسترلينيان وأربعة شلنات. ساعدني الجنيهان الإسترلينيان في كسب تقدير عامل المقصورة، إذ قدمتهما له بعد وصولي إلى متن السفينة.

رحلة سيئة! من ملبورن إلى كولومبو، استمرَ الطقس سيئاً. بين كولومبو وعدن، استمرت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في ضربنا لمدة ثلاثة أيام، ثم هدأت. لأول مرة خلال الرحلة، ظهر الركاب على المائدة بالكامل... قرر المراقب، بالاتفاق مع قائد التايمز، أن الوقت قد حان لإقامة الحفلة التقليدية في كل رحلة، لصالح أرامل بحّارة الشركة.

أنا وأوبالدي كنا ننتظر هذا بفارغ الصبر. إذ سيكون المراقب مشغولاً للغاية طوال الحفلة. ونحن سنستغل الوقت لذلك "العمل"!

أقيمت الحفلة قبل يومٍ من الوصول إلى عدن.

في الساعة الحادية عشرة مساءً، قادني أوبالدي إلى مقصورة المراقب. على سطح السفينة، عزفت فرقة من الأبواق وآلات نفخية، برفقة الأكورديون. أعتقد أنهم كانوا يرقصون رقصة الجيغ...

عبرتُ بصحبة أوبالدي عبر مكتب المراقب الصغير، ثم مقصورته، ووصلت أمام بابٍ معدني ضيق يؤدي إلى الغرفة المحصَّنة.

فتح أوبالدي إحدى الخزائن في مقصورة المراقب: كان عليّ أن أختبئ هناك، في حال عاد المراقب لسببٍ أو لآخر إلى مقصورته. ذهب أوبالدي ليتولى المهمة في الممر، على بعد مسافة من باب المقصورة؛ كان عليه أن يحذرني بإسقاط وعاء السُكَّر الذي يحمله في يده في حال ظهور المراقب.

جُهِّزَ باب القبو بثلاثة أقفال أمان. لم أحتج إلى كسرِ سوى واحدٍ منها. بعد أن فهمت آليتها، فتحتُ القفلين الآخرين بسهولة. سحبتُ الباب نحوي، وضغطتُ على زرِّ مصباحٍ كهربائي صغير كنت قد جهزت نفسي به، ودخلت الغرفة المحصَّنة.

كانت عبارة عن حجرة مكعبة تبلغ مساحتها مترين ونصف من كل جانب، ترتكز جدرانها على ألواح معدنية. شكّلَت نوعاً من الامتداد لمقصورة المراقب. عُزّزَت حواجزها باستخدامِ صفائح سميكة من الفولاذ محمولة على أقواسٍ مثبتة على العوارض. يدعمها صليب حديدي على نافذتها.

رأيت أمامي، على الرفوف صناديق صغيرة من الخشب السميك كانت جوانبها مختومة بأختامٍ كبيرةٍ من الشمع الأحمر؛ كان هناك ثلاثة عشر صندوقاً، كلٌّ منها بحجمِ صندوق الدومينو، وكانت بجوار الصناديق والأشرطة التي عهد بها الركاب الحذرون إلى المراقب.

مددت يدي نحو الصناديق.

خلفي، سمعتُ صوتاً حاداً. كان الباب قد أُغلق للتو! حاولت فتحه: سمعت طرقتين على اللوح على الأقل، اعتقدت أنني سمعت... خمّنتُ - لن أعرف أبداً ما إذا كنت مخطئاً! - أن أوبالدي هو الذي أغلق الباب عندما رأى المراقب يقترب... ولكن، بعد كل شيء، ربما نتجَ ذلك عن اضطرابٍ قوي، وهو ما شعرت به بشكلٍ واضحٍ.

مهما كان الأمر، ارتجفتُ... تخيّلوا وضعي: كنت أخاطر بالأشغال الشاقة، إلى الأبد...».

ثم توقف فيليب راكييه عن الحديث طالباً الشرب.

سكبَ له القبطان ميرسييه كأساً ممتلئاً من كحول قصب السكر. شربه الناجي برشفةٍ واحدةٍ ثم قال: «حاولت أن أتأمل وضعي بهدوء، نعم، عندما هزّتني صدمة هائلة جعلتني أتدحرج على صفائح الأرضية المعدنية.

بعد لحظاتٍ قليلة، لأن الضجة أدخلتني في حالة دوار، حاولت النهوض، فشعرتُ أن الأرضية شكّلت زاوية تزيد عن خمسة وأربعين درجة مع الأفق...! كادت سفينة التايمز أن تنقلب! ولكنني تمكّنت من الوقوف، ولاحظت أن الأرضية تغوص تحت قدمي، كمصعدٍ يسقط.

كانت التايمز تغرق.

غاصت بشكلٍ متعرجٍ مع حركاتٍ متموجةٍ، وانزلقت جانبياً، ثم استقامت، وهبطت.

سمعتُ من حولي صدمات خفيفة أدت إلى اهتزاز الصفائح المعدنية. وسمعتُ أصوات طقطقة رهيبة.. استعدت رباطة جأشي تماماً. عندما تفكر في الأشغال الشاقة مدى الحياة، يمكنك أن تتصوّر الموت!

عندها أدركتُ أنني إذا بقيت في الغرفة المحصَّنة، فسأموت ببطء من الاختناق أو الغرق، وأردت فتح الباب، ومحاولة الخروج، والعودة إلى السطح. لكنني توقفت هناك، إذ أدركت أن الأمر مستحيل بالفعل. كانت غرفة المراقب، ومكتبه، والممر الذي يجب أن أعبره قبل الوصول إلى الجسر، قد امتلأت كلها بالمياه بالفعل. وكان من المستحيل العبور.

بدأ العَرَق يطرّز ظهري.

واصلَت السفينة هبوطها. مع كل تمايل، كانت صناديق الجواهر وعلب الجواهر تنزلق على الأرض وتصطدم بالحواجز... لكنني كنت قد نسيت وجودها!

لم ينطفئ مصباحي الكهربائي الذي أسقطته، فالتقطته واقتربت من النافذة.

تمكنّتُ من رؤية خطوطٍ من الرغوة القاتمة تمرُّ أمامي، وظلالٍ... أدركتُ، من دون أيّ خطأ محتمل، أن السفينة تواصل هبوطها نحو القاع.

صرتُ مفقوداً تماماً، لا قوة يمكن أن تنقذني. ومع ذلك، أنا هنا...!

أنا رجلٌ عمليٌّ... نعم عملي عندما لا أشرب الخمر... لم أشرب في تلك الليلة! لذا، بعد أن أدركت أنني مفقود - مفقود تماماً، جلستُ، أو بالأحرى استلقيتُ على الأرضية التي تتأرجح تحتي...

استمرت أصوات الطقطقة. في أيّ لحظة، ستتفكك الجدران الفولاذية للغرفة المحصَّنة، وتتشقق تحت الضغط الهائل الذي تتحمله. وستكون تلك نهايتي.

أطفأت مصباحي الكهربائي؛ وضعته في جيبي وانتظرت.. رغماً عني، حدّقتُ في النافذة التي كنت مستلقياً أمامها. رأيتُ، في بعض الأحيان، ومضات غريبة، فقاعات... سمعتُ انفجارات غائرة: أجزاء السفينة المختلفة، تحت ضغط الماء الرهيب، كانت تتفكك الواحدة تلو الأخرى...

لا بد أن أكون الناجي الوحيد، أنا، اللص، السارق...! وأيّ عذابٍ رهيبٍ سأعاني منه! فقط لو كان لدي مسدس! آه! حسدتُ الآخرين، أولئك الذين ماتوا...

عندما تأرجح الحطام بقوةٍ أكبر، شعرتُ بصدمة الصناديق الصغيرة المغلقة التي تحتوي على الياقوت والأوبال عليّ. سخرية! تلك الثروة الهائلة، عندما تأتي اللحظة، لن تطيل حياتي بجزءٍ واحد من الثانية! ومن أجل سرقتها انطلقت في رحلة سفينة التايمز!

شعرتُ بصدمةٍ خفيفةٍ للغاية، غير محسوسة تقريباً، وتوقف الحطام عن الحركة. لقد وصلَ إلى قاع البحر، حيث سيبقى حتى نهاية الدهر!

أصبحت أرضية الغرفة المحصَّنة الآن أفقية تقريباً. وقفتُ، فشعرتُ بصداعٍ طفيفٍ، ولكن هذا كان كل شيء.

أشعلتُ مصباحي الكهربائي. بدا لي أن الصفائح المعدنية للغرفة المحصَّنة قد التوَت قليلاً، لكنها ظلّت ثابتة. لم أكن معرّضاً لخطر الهلاك غرقاً في الوقت الحالي، لكن هناك الاختناق..

أطفأتُ مصباحي. أردت توفير البطارية؛ فالموت في الظلام يثير اشمئزازي.

أرجو أن تصدقوا أنني كنت واضحاً جداً لدرجة أنني حاولت آلياً حساب العمق الذي كنت فيه، مع الأخذ في الاعتبار التواء الألواح وسمكها ومقاومة الفولاذ... حسابٌ غير دقيق على الإطلاق، نظراً لأنني لا أعرف السماكة الدقيقة للألواح ودرجة مقاومتها لكل سنتيمتر مربع... فكرتُ: "من الأفضل أن أحاول النوم". فتحركتُ للاستلقاء على الأرضية، واستدرتُ ووجدتُ نفسي في مواجهة النافذة.

الدهشة جمّدتني. من خلال النافذة السميكة ذات الصليب الفولاذي، ميّزتُ وهجاً بنيّاً أحمر، أحمر الحديد الساخن، أشعة تحت الحمراء، في النهاية. في تلك اللحظة، آمنت بظاهرة الوميض الفسفوري. لكنني رأيت ظلالاً تتحرك! هل هي أسماك على الأرجح؟ نظرتُ، مهتماً ومرعوباً في الوقت نفسه من فكرة أن تلك الأسماك، أيّاً كانت، كان مُقدّراً لها أن تتغذى على جسدي عندما تنهار الصفائح المعدنية للغرفة المحصَّنة...!

نظرتُ... بدا لي أن الظلال، التي كانت ملامحها غير دقيقة، تغيّر لونها ببطء، من الأخضر الداكن إلى البني الأحمر، ثم إلى الأسود، واختفت.

بدأت عيناي تعتادان تدريجياً على ذلك الظلام الخافت.

لاحظت تدريجياً مبانٍ أسطوانية غريبة، مليئة بالأشواك والمخالب، بحجم المناجل، تخترقها ممراتٌ أفقيةٌ. وفوق هذه الأسطوانات، هناك بوابات عملاقة تلوّح بظلها الأخضر والأسود.

ظننتُ نفسي ضحية وهمٍ ما. ما رأيته هو الطحالب، وربما المرجان. نظرتُ بعناية أفضل، وبذلتُ جهداً لأن أكون هادئاً وموضوعياً.

لا! ذلك ليس مرجاناً، ولا طحالب! إنها بالفعل مبانٍ اصطناعية مشيّدة من قِبَل كائنات موهوبة. كانت الأسطوانات والبوابات ذات أبعاد منتظمة. ثُقِبَت الممرات لتشكّل مخمسات. وصُفَّتِ البوابات بزوايا ينبغي أن تُقاس بدقة، يمكنني أن أقسم أنها خمسة وأربعون درجة...

لو كانت شكوكي ما تزال موجودة، لتلاشت لأنني رأيتُ، بين الأسطوانات والأبراج، يمكنني القول، جثثاً مستطيلة الشكل تنتهي بمغازل، ووُضعت عليها آلاتٌ غريبةٌ تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ أكورديونات ضخمة مزوّدة بعجلاتٍ مسننة! هل سمعتم؟ عجلاتٍ مسننة! حول هذه الآلات، تحوم كائنات غير عادية...

كائنات... ارتفاعها ثلاثة أمتار... وربما أقل... ربما كان زجاج النافذة مشوّهاً بسبب الضغط الرهيب الذي تعرّض له.

تتكوّن هذه الكائنات من بصيلة بيضاء مخططة عمودياً بالأخضر الداكن، وحولها ثلاثة صفوف من العيون المستديرة بلونِ الكرز الأحمر.

تحت تلك البصيلة، التي يمكن أن يبلغ ارتفاعها خمسين سنتيمتراً وقطرها أربعين سنتيمتراً، تحركت مجسّات، سبعة - أحصيتها - تشبه تماماً تلك الموجودة في الأخطبوطات، ولكن بأطوالٍ متباينةٍ. كثيرٌ من هذه المجسّات، ثلاثة على وجه الدقة، كانت مزوّدة بمخالب حادة بدت لي وكأنها مصنوعة من المعدن.

كان رأس الكائنات - أعني البصيلة الغريبة - محاطاً فوق صفوف العيون الثلاثة بدائرةٍ معدنية. وفي الجزء العلوي من البصيلة، تدفقت نافورة بيضاء متباينة، أحياناً سميكة، وأحياناً دقيقة.

كانت الكائنات تحيط بإحدى الآلات - الأكورديونات التي حدثتك عنها - وبدت أنها تدفعها أو تسحبها... وخلفها، تقدّمت كائناتٌ أخرى مماثلة، ولكن أصغر حجماً، ولها صفٌ واحدٌ فقط من العيون. لم تكن بصيلتها متوّجة بأيّ نافورة، ولا مزيّنة بطوقٍ معدني. لم يكن لديها مخالب في نهاية مجسّاتها. إنها عبيدٌ وعمالٌ بلا شك، أنا أوظف هذا الاسم بالمعنى الذي أطلقه علماء الحشرات عند الحديث عن عاملات النحل أو النمل.

لا أعرف لماذا؛ كان الأمر أقوى مني: أمسكتُ بمصباحي الكهربائي، بحركةٍ عفوية، طائشة، فاقدة للوعي إذا جاز التعبير، ورفعته إلى ارتفاع النافذة، وضغطت على المفتاح. على الفور، رأيتُ أحد الكائنات المتجمّعة حول الآلة - الأكورديون يقترب من النافذة، بينما تزايدت التدفقات المنبعثة من نفاثة البصيلة بشكلٍ كبيرٍ.

التصقَ الكائن، إذا جاز التعبير، بزجاج النافذة. رأيتُ عيونه الحمراء المتعددة، وخطوط بصيلته الخضراء السوداء. كائنٌ بشعٌ، لكنه كائنٌ يتمتع بالذكاء! توهّجت الصفوف الثلاثة من العيون الحمراء مثل المعدن المنصهر. بدت خطوط البصيلة تنبض بالحياة وتدور.

حافظتُ على رباطة جأشي أيها السادة! وفكرتُ في نجاتي. ربما تستطيع هذه الكائنات، أيّاً كانت، أن تنقذني! ومن يعرف أنه محكوم عليه بالإعدام لا يرفض أيّ أمل حتى الأكثر جنوناً.

لوّحت بمصباحي اليدوي. رأيت خطوط بصيلة الكائن تتشابك، تتباعد، تلتف... لا شك أنه كان يحاول أن يفهمني شيئاً ما؟

ابتعد. ثم اقتربَت عدد من الكائنات الصغيرة التي تتبع الآلة - الأكورديون من النافذة، وشابكت مجسّاتها وأصدرت وهجاً أحمر كثيفاً، أضاء الغرفة المحصَّنة بالكامل.

لم يكن هذا ما أردت! أردتُ الخروج! العودة إلى السطح!

التوَيت! لا أعرف ماذا فعلت بعد ذلك! حاولت أن أجعل نفسي مفهوماً أمام هذه الكائنات التي ليس لديها أي شيء مشترك معي، والتي لا بد أنها تجهل البشر كما يجهلها البشر، ولا تعرف شيئاً عن الغلاف الجوي ونور الشمس... كائنات تختلف عنا كما يمكن أن يكون سكان كوكب المريخ، إذا كانوا موجودين!

بدأتُ أفتقد الهواء... انخفضت درجة حرارة الغرفة المحصَّنة إلى حدٍّ كبيرٍ: مثل مجمدة حقيقية. كنت أرتجف من البرد وكذلك من القلق.

عندما توقّف حطام السفينة في قاع البحر، ضحيتُ بحياتي. والآن هنا أملٌ جديدٌ جعلني أستعيد شجاعتي... كان من الصعب عليَّ أن أستسلم مرةً ثانية للرحلة الكبيرة...

استدعيت كل عقلي، كل معرفتي... حاولت المستحيل. اقتربتُ من النافذة، وكدتُ أن ألمسها، فتحتُ فمي وبالغتُ في اللهاث، لأحاول أن أفهِمها أنني أختنق. ولكنها ربما تجهل تماماً وظائف الأعضاء لدينا!

تجمّعَ كثيرٌ منها حول النافذة وأخذت تراقب. لاحظتُ أنها تغيّرُ لون أعينها في بعض الأحيان ويتحوّل من اللون الأحمر الداكن إلى اللون الأحمر الناري.

ماذا فهِمَت؟ من يعرف؟

انفصلَت فجأة. ورأيت اقتراب، من دون أن أتمكّن من تخمين من يحركه، نوعٍ من القفص الذي يشبه شكل مغزلٍ عمودي تقريباً. في وسط هذا المغزل، أطلق مخروطان ذوا رأسين

متقابلين شعاعاً أحمر مزدوجاً انعكس على قضبان القفص، قضبان بدَت وكأنها مصنوعة من الكهرمان الأسود.

ازدادت شدة الشعاع القرمزي المزدوج بسرعة. وسرعان ما أصبح قوياً بما يكفي لإضاءة الغرفة المحصَّنة التي غمرتها أشعته بالكامل.

الضوء! لم يكن هذا الذي ينقصني؛ بل كان الهواء! كنت أختنق... كم دقيقة مرَّت منذ غرقت التايمز؟ كم ساعة؟ كنتُ مهتماً جداً بما رأيته لدرجة أنني فقدت الإحساس بالوقت... لكنّ رئتيّ تطلبان الهواء...

بدأتُ أدرك تدريجياً أن البرد الذي يجمّدني يتناقص. لم يكن المغزل الغريب يشع الضوء فحسب، بل الحرارة أيضاً؛ شعرت بتحسن. وتوقفت عن الارتجاف.

تمكنتُ من رؤية اختفاء قطرات التكاثف التي تكوّنت على الصفائح المعدنية واحدة تلو الأخرى. لكنني سمعتُ صوتَي تصدّع أو ثلاثة، مما أنذرني بأن جدران الغرفة المحصَّنة بدأت - مثلي - تظهر عليها علامات التعب.. بدأتُ أرتجف مجدداً من فكرة الموت الذي يترصدني! صار الموت الآن بالنسبة إليّ موتاً مرتين! بعد ما رأيته للتو، وما كنت أراه، أردتُ أن أعيش لأعلن للعالم اكتشافي الاستثنائي!

ولكني فهمت أن خلاصي مستحيل.. لو بقيتُ في الغرفة المحصَّنة فسأموت اختناقاً، على افتراض أن جدرانها تقاوم. ولو خرجتُ، سيكون السحقُ، والغرق.

التوَيت بشكلٍ مائلٍ، ومتشنجٍ، ومسعورٍ. الهواء! كنت بحاجة للهواء! أشرتُ إلى حلقي... تظاهرت بالاختناق...

نظرَت الكائنات. تغيّر لون الصفوف الثلاثة لأعينها، كشفَ لي اضطراب خطوط بصيلاتها أنها كانت تفكر، وأنها تستدلُّ. ربما تأثرت! لا شك أنها رأت بشراً آخرين، لكنهم أموات! أرادتني مصادفة غير عادية أن أكون على قيد الحياة! إله اللصوص، ربما...».

أطلق فيليب راكييه تنهيدة ساخرة. أصبح صوته يضعف. لكن أولئك الذين استمعوا إليه كانوا مهتمين للغاية لدرجة أنهم لم يفكروا في نصحه بالراحة.

توقّف مؤقتاً لبضعِ ثوانٍ، وقد هدأ قلبه. ثم تحدّث مرةً أخرى بصوتٍ بالكاد محسوس: «ابتعدَت الكائنات. اعتقدتُ أنها تخلّت عني. رأيت أخريات تمرُّ بجانبي، صغيرة، تلك التي أسميتها "عبيداً". دفعتْ أمامها، موضوعة على نصف كرات تنزلق بسرعة، كل أنواع الأشياء التي تعرّفتُ عليها كحطام التايمز: أذرع السفينة الملتوية، والدعامات، وألواح الغلّايات، وما إلى ذلك.

عبرَ ذهني حدسٌ: ماذا لو كانت هذه الكائنات هي التي تسببت في غرق السفينة لتستولي على بقاياها؟

بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، سمعتُ صريراً جعلني أرتعد: تساءلت عما إذا كانت الصفائح المعدنية للغرفة المحصَّنة هي التي انهارت. بدا لي أنّني أشم رائحة الكبريت... وفجأة تنفستُ بشكلٍ أفضل. شعرت برأسي أخف وزناً. وشعرتُ بالراحة والارتياح.

حاولت أن أفهم. قمتُ بتحليل مشاعري، وفهمتُ! نعم. فهمتُ! كانت الكائنات ترسل إليّ الأوكسجين، الأوكسجين النقي!

رأيتها تقترب مرةً أخرى من النافذة، وتراقبني. كنت ألهث، وأتنفس بشكلٍ محموم. اجتاحتني إثارة غريبة... كنتُ مثل السكران!

أعتقد أنني في تلك اللحظة تحدثتُ بأشياءٍ غير مترابطة. ناديت الكائنات... آثار الأوكسجين! وبجهدٍ عنيفٍ، تمكّنت من تهدئة نفسي قليلاً.

كنت أتنفس، كانت هذه نتيجة. لكن الصفائح المعدنية للغرفة المحصَّنة، رأيتها من دون أن أخدع نفسي، راحت تلتوي أكثر فأكثر؛ ستنهار في أية لحظة الآن.

لا أعرف السبب، سيطر عليّ غضبٌ غبيٌ: التقطت عدداً من الصناديق التي تحتوي على الأوبال والياقوت، ورميتها بقوّتي كلها على الجدران، حيث تحطمت. تناثرت الأحجار الكريمة على الأرضية في لحظةٍ واحدةٍ، وتألقت في الضوء القرمزي للشعاع المزدوج المنبعث من القفص ذي الشكل المغزلي.

استطعت أن أرى أن الكائنات لم تظهر أيّ عاطفة أو أيّ شعور عند رؤية هذه الثروات البشرية.

كان قلبي ينبض بسرعةٍ متزايدة. شعرتُ وكأن شراييني تغلي. عطشٌ شديدٌ يجفف ويحرق حلقي. وتدريجياً أصبح لساني صلباً.

فهمتُ أنها النهاية.

كالمعتوه، بدأت من جديد في الحركات العشوائية: أردتُ الخروج، الصعود إلى السطح، رؤية الشمس مرةً أخرى، العيش، العيش حتى لساعةٍ واحدةٍ فقط إذا لزم الأمر... ولكن رؤية النور الأبيض مرةً أخرى، النور الحقيقي، نور النهار: نور البشر!

بلا حراك، استمرَّت الكائنات في مراقبتي. تصاعدت نفاثات البخار مباشرة من بصيلاتها، وخلفها، ميّزتُ إحساساً بالوخز المشوش، والذي لم يعد لدي الجرأة لتحليله.

بدأتُ ألهث مثل الكلب، وبرزَ لساني الجاف والصلب من فمي.

كانت درجة الحرارة في الغرفة المحصَّنة ما تزال دافئة، معتدلة. ولكن من جديد، عادت المياه تتسرب من خلال الصفائح المعدنية.

ثم فجأة استسلمت! هل تفهمون؟ قبلتُ بالأمر الذي لا مفرَّ منه!

نظرتُ لآخر مرة إلى الكائنات الغريبة التي لم تكن إلا سبباً في تمديد معاناتي، ثم استلقيت على الأرضية الفولاذية التي شعرت برطوبتها تحتي.

ثاني أكسيد الكربون، الأثقل من الأوكسجين، الذي تراكم في الجزء السفلي من المقصورة خنقني. بدا لي أنني أسمع صدمات وصريراً... اعتقدت أن أحدهم يهزّني... وثم لا شيء، فقدت الوعي!

توقّف فيليب راكييه عن الحديث. وعلى الرغم من أن ميرسييه وجاك ميشيل انحنيا عليه، فإنهما بالكاد سمعا نهاية قصته. معتقدين أن الناجي يريد استعادة قوته قبل الانتهاء، فانتظرا.

سأل ميرسييه، بعد مرور دقيقةٍ طويلة: «وماذا بعد؟».

غمغم المهندس وهو ينظر إليه: «كيف ماذا بعد؟ وبعد ذلك، يا سيدي، لم أعد أعرف أي شيء...! نعم... وفقاً لما أخبرتني به، كنت بلا شك محبوساً في هذه الكرة التي التقطموها... أشفقَت عليَّ كائنات الهاوية وأعادتني إلى السطح... أعطني شراباً من فضلك!».

كانت زجاجة كحول قصب السُكّر فارغة. نظر ميرسييه إلى الرجل، ثم التفتَ إلى القبطان الثاني وأرسله ليحضر زجاجةً أخرى.

قال وهو يُناول راكييه كأساً نصف مليء: «اشرب، وحاول النوم!».

شرب الناجي من دون قول أيّ كلمة. أسند رأسه على الوسادة وأغمض عينيه.

أشار ميرسييه إلى زميله ليتبعه وخرج معه إلى المظلة. وسأله بعد أن أغلق الباب برفق: «ما رأيك في الأمر؟ محتال أم مجنون؟».

اعترض جاك ميشيل قائلاً: «ولكن من كان سيحبسه في هذه الكرة، التي لم تكن معدنية، إذ تطلّب الأمر بضعَ رصاصات لتحطيمها؟».

ردَّ ميرسييه: «سنرى ذلك! غداً، عندما يرتاح، سنستجوبه بعناية لمعرفة الحقيقة! تعال لتناول العشاء؛ تجاوزت الساعة الثامنة يا عزيزي، ولا بد أن موريس المسكين يشعر بالملل على جسر السفينة».

***

في صباح اليوم التالي، ذهب القبطان ميرسييه إلى الناجي فوجد أنه قد توفي.

لا تحتوي أسماله على أوراق تعريف. تمّت حياكته في كفنٍ من قماش الأشرعة وغُمِرَ في الصباح.

في الليلة نفسها، رسَت السفينة أريادن في ميناء جيبوتي، حيث قدّم القبطان ميرسييه على الفور تقريره البحري الذي روى فيه كيف أنقذ غريقاً استثنائياً.

عَلِمَ أن التايمز؛ سفينة البريد الأسترالي، موجودة بالفعل، وكان يُنتَظَر عبورها بلا جدوى في عدن منذ أربعة أيام.

غادرت السفينة أريادن جيبوتي في اليوم التالي. وبعد أسبوع، وصلت إلى بورسعيد بعد أن عبرت قناة السويس، حيث عَلِمَ القبطان ميرسييه أن التايمز غرقت بالقرب من رأس غاردافوي، من دون معرفة سبب غرقها.

أكد الصيادون العرب الذين جمعوا بعض الحطام من السفينة المنكوبة في البحر وعادوا بها إلى عدن، أنه في وقت وقوع الكارثة المفترض، كان الطقس جميلاً بشكلٍ خاص في محيط غاردافوي...

أكدت هذه التصريحات سفينتان أخريان؛ أوفير من لندن، وجنرال إيرازوريز من كالاو، اللتان كانتا تبحران خلال ليلة غرق التايمز قبالة رأس غاردافوي.

عند وصوله إلى نانت، تأثّر القبطان بشدة بقصة فيليب راكييه، فأجرى تحقيقات وعرفَ بسهولة أن التايمز قد اصطُحِب على متنها في ملبورن، خلال رحلته الأخيرة، كميةً كبيرةً من الياقوت والأوبال.

لم يكذب فيليب راكييه..

هل هناك فعلاً في قاع البحر كائنات تعرفنا ونحن لا نعرفها؟ كائنات تتمتّع بحضارة متقدّمة – والتي ربما تتسبب في غرق سفننا لتستولي على أشياء معيّنة؟

هناك حقيقةٌ واحدةٌ مؤكدةٌ: قبالة رأس غاردافوي، تُفقد أكثر من مئة سفينة كل عام: غودوك، لورنار، والأدميرال - غيدون انتهت مسيرتها المهنية هناك - وغيرها كثير...

وُجِّهَت أصابع الاتهام للتيارات البحرية. لكن هل هي المذنبة الوحيدة؟

رسول الكوكب

ملفوفَين بالفراء السميك، من أخمص القدمين إلى أعلى الرأس، تقدّم الجيولوجي أوتار والينز وعالم الفلك أولاف دينسمولد ببطءٍ عبر حقلٍ جليدي.

وأمامهما، على بعد حوالي خمسين متراً، كانت الزلّاجة التي يقودها كوبياك، وهو هندي من ألاسكا، تنزلق عبر السهل الأبيض.

ثم، كان العدم: ثلجٌ متجمد، كتلٌ من الجليد، سماءٌ رمادية، من دون أي انعكاس.

لا نسمة هواء، بل درجة حرارة 28 درجة تحت الصفر.

غادر الرجال الثلاثة - الجيولوجي وعالم الفلك والهندي - قبل أحد عشر يوماً، سفينتهم سيريوس ذات الصواري الثلاثة، والتي نقلتهم من بيرغن إلى أرض ويلكلس.

تقدّمت السفينة سيريوس حتى خط العرض 70 واضطرت إلى التوقف أمام أرض الجليد.

لم تكن البعثة تهدف بشكلٍ صريحٍ للوصول إلى القطب الجنوبي، ولكن للاقتراب منه قدر الإمكان واستكمال الملاحظات التي أدلى بها أموندسن وشاكلتون، من وجهة نظر الأرصاد الجوية والفلكية والجيولوجية.

نظراً لعدم قدرة سيريوس على المضي قُدماً أكثر، قرر قائدا البعثة الانغراز عبر أرض الجليد.

بالإضافة إلى عدد من الأدوات العلمية، بما في ذلك جهاز لاسلكي صغير، حملوا ما يكفي من المؤن من جميع الأنواع لمدة ستة أسابيع، ومعدات تخييم خفيفة ومتطورة، وأسلحة، وكلها مثبّتة جيداً على زلّاجة يجرها اثنا عشر كلباً من ألاسكا بقيادة كوبياك، الهندي الأحمر العملاق الذي استُئجرَ في نُوم في غرب ألاسكا.

كان الجيولوجي أوتار واليننز في الثانية والأربعين من عمره، رجلاً قوياً، منحنياً قليلاً، بوجهٍ مستدير وأنفٍ قصير، ويرتدي نظارة ذات إطارٍ صدَفيٍّ. لقد كان خشناً ويفقد أعصابه بسهولة. عضو في الأكاديمية الملكية في كريستيانيا وعدد من الجمعيات العلمية، ألّفَ كثيراً من الأعمال الموثوقة حول تكوين قارة القطب الشمالي.

كان رفيقه، أولاف دينسمولد، قد بلغ للتو الحادية والخمسين عاماً، نحيفاً وعظمياً، بوجهٍ يشبه مقدمة السفينة، وعينين صغيرتين، دائريتين، سوداوين، ثاقبتين. كان قليل الكلام، ويظلّ صامتاً أياماً كاملة. كان لأبحاثه حول أقمار كوكب المشتري، على وجه الخصوص، صدى هائلٌ. استُشهِدَ به كواحدٍ من أوائل علماء الرياضيات على قيد الحياة.

خلال الرحلة الطويلة التي استمرت على متن سفينة سيريوس، بين بيرغن وأرض ويلكلس، لمدة شهرين تقريباً، أصبح العالِمَان اللذان كانا يعرفان بعضها بالفعل، صديقين، أو بالأحرى، اعتادا على بعضهما بعضاً. علاوة على ذلك، كانا مهتمين كلاهما بالقَدرِ نفسه بنجاح البعثة التي حملت اسميهما...

والآن، جنباً إلى جنب، تقدما على أرض الجليد القاتمة.

كانا يتحدثان قليلاً. منذ انطلاقهما صار لديهما الوقت ليخبرا بعضهما كل شيء؛ ماضيهما، مشاريعهما، طموحاتهما، خيبات أملهما. ولم يحدث أيّ حادث.

كان ذلك في أواخر أيلول – في ربيع القطب الجنوبي. حيث لبضعِ ساعات كل يوم، تظهر شمسٌ باهتةٌ.

كان أولاف دينسمولد يدوّن بعض الملاحظات الفلكية من دون اهتمامٍ كبيرٍ، ثم يستأنفان سيرهما. السير، والتخيم، والوجبات، والراحة، كانت الحياة دائماً هي نفسها.

كان كوبياك قليل الكلام مثل دينسمولد. وإذا تحدث، فذلك لكلابه لتشجيعها أو تهديدها. علاوة على ذلك، كان صوت فرقعة سوطه هو خطابه الرئيس...

غادرت الزلّاجة بالفعل المنطقة التي وصل إليها المستكشفون السابقون. وبذلك أضحوا الآن ينتقلون إلى المجهول؛ مجهول رتيب بقدرِ ما هو كئيب؛ لا نباتات. لا أشجار. لا شيء سوى الجليد. في بعض الأماكن امتدَ سهلٌ مستويٌ؛ وبعيداً، كتلٌ عملاقة بأشكالٍ ملتوية، غير عادية: مكعبات مثالية، وأمواج متجمدة حقيقية، وكثبان، وأهرامات، وكلها مقطوعة بأخاديد، وصدوعٍ ذات فواصل واضحة، كما لو أنها قطّعت بواسطة آلة.

كان عِرض بعض هذه الصدوع بضعة أمتار؛ لذا لا بد من التحايل عليها. ويتراوح عمقها من عشرة إلى مئة متر وأكثر. وفي بعض الأحيان يصدر منها أصوات قرقرة باهتة، تكشف عن عمل المياه الذائبة. وفي مكانٍ آخر، ينهار الجليد تحت وزن المستكشفين الذين

اضطروا إلى إيلاء اهتمامهم بأكلمه لتتبع آثار الزلاجات بدقة؛ لأن غريزة الكلاب لم تخدعهم.

في ذلك اليوم، كانوا قد تقدّموا بالفعل لمدة أربع ساعات وبدا أن المرحلة مُرضية وليست مرهقة. جعل هدوء الهواء البردَ مقبولاً للغاية. وكان سطح الجليد سلساً بدرجةٍ كافية.

ومع ذلك، منذ لحظاتٍ قليلة، رفع كوبياك الذي يمشي عادةً ورأسه منخفض، جبينه نحو السماء الباهتة، وأدار وجهه إلى اليمين واليسار، مثل شخصٍ يشتم الريح.

فجأة تذمّرَ أوتار والينز موجّهاً كلامه إلى رفيقه: «ألا يبدو غريباً هذا الدليل؟».

ردّاً على ذلك، هزَّ دينسمولد كتفيه بلا مبالاة، وكأنه يشير إلى أن مظهر كوبياك لا يهمه كثيراً.

واصل والينز: «البارومتر مرتفع! على الرغم من ذلك لا أعتقد أن عاصفة تهددنا!».

رفع دينسمولد كتفيه كردٍّ جديد.

في تلك اللحظة بالتحديد، أطلق كوبياك ما يشبه الصفير الذي أوقف الكلاب في مسارها.

واستدار الهندي منتظراً انضمام العالِمَين إليه. وهذا ما فعلاه.

سأل والينز بإيجاز: «حسناً؟».

قال كوبياك: «لنخيّم! نحتاج مَأوىً. إعصارٌ كبيرٌ، إعصارٌ كبيرٌ قادم! ليس جيداً!».

من دون أن ينبسا ببنت شفة، اقترب النرويجيان من الزلّاجة واطلعا على البارومتر المثبّت عليها. كان مستقراً، لكن الكحول في أنبوبه الزجاجي يتناقص بسرعةٍ مرعبةٍ.

بالفعل، كان عليهم التخييم. فشرع الرجال الثلاثة في العمل.

في لحظاتٍ قليلة، فُكّت الكلاب من الزلّاجة ورُبِطَت، ووُضِعَت الزلّاجة في تجويفٍ في الأرض. بعد ذلك، باستخدام سكاكينهم، قطع المستكشفون كتلاً من الجليد وصنعوا منها نوعاً من كوخٍ مخروطي ليكون مأوى لهم.

لكن السماء أظلمت قليلاً. أطلقت الكلاب زمجرة منخفضة بعد أن أنهت تناول حصّتها من سمك السلمون المدخّن التي وزعها كوبياك.

في الكوخ، كان موقد الكحول مضاءً. وصفّرت الغلّاية المعلقة في أعلاه بهدوء...

اندلع الإعصار فجأة بعنفٍ لا يصدق. وفي ثوانٍ معدودة، تساقطت دوَّامات من الثلج الكثيف من السماء المظلمة، بينما اختلط عواء الكلاب المشؤوم بصفير العاصفة.

الكوخ المبني بشكلٍ جيدٍ، لم يتحرّك.

مرَّت ساعةٌ طويلةٌ. بعد أن أنهى الرجال الثلاثة وجبتهم، أشعلوا الغليون وراحوا يدخنون في صمتٍ.

وقفَ كوبياك فجأة. ردّاً على استفهام والينز الصامت، أشار إلى الفجوة التي حُفِرَت على مستوى الأرض، والتي سمحت للمستكشفين بدخول الكوخ الجليدي: لقد حجبها الثلج تماماً!

كان لا بد من تنظيف الفتحة، وإلا سيحدث اختناق حتماً على المدى القصير. قبلَ العالِمَين، فهمَ الهندي ذلك!

مسلحاً بسكين الثلج، شقَّ طريقه ببطء عبر الجدار الجليدي. في غضون دقائق قليلةٍ، حفر ما يشبه نفقاً واختفى فيه.

ملفوفين في كيسي نومهما السميكين، ومستلقين جنباً إلى جنب، لم يتبادل أوتار والينز وأولاف دينسمولد كلمةً واحدةً. لم يكن بوسعهما فعل أيّ شيء سوى الانتظار.

وصل هدير العاصفة الهائل إلى آذانهما، ولم يعد مكتوماً، بل واضحاً وقريباً جداً.

وسط صفير الريح، دوَت انفجارات رهيبة، أغرقت نباح الكلاب البائسة التي راحت تعوي حتى الموت.

قال والينز: «لا بد أنَّ كوبياك أزال الفتحة بالكامل!». لكن ضجيج الإعصار غطى صوته.

اخترقت نفخة جليدية الحفرة التي اختفى فيها الهندي، وجعلت وميض لهب الموقد يتمايل بشدة.

هزَّت رعشةٌ قصيرةٌ ولكن مميزة للغاية الكوخ، وتوقف سماع الانفجارات. نبحت الكلاب بصوتٍ أعلى.

مضت بضع دقائق، ولم يظهر كوبياك مجدداً.

كان العالِمَان ما يزالان صامتين. ظنّا أن الهندي يجب أن يعمل على تطهير مدخل الكوخ على مساحة كبيرة، حتى لا يضطر إلى البدء من جديد.

لكن مضت ساعة، ثم اثنتان... رأى أوتار والينز أن دينسمولد قد نام، وأخذ يشخر.

نظر الجيولوجي إلى ساعته ورأى أنها توقفت. أحسَّ بانقباضٍ في حلقه بسبب قلقٍ غريبٍ وعنيفٍ جداً، لدرجة أنه التفت إلى رفيقه وهزّه ليوقظه.

سأل دينسمولد وهو جالسٌ عابساً: «حسناً؟».

قال والينز: «مضت أكثر من ثلاث ساعات منذ خروج كوبياك، ولم يظهر مرةً أخرى!».

ردَّ دينسمولد مندهشاً: «ثلاث ساعات؟!».

عقَّبَ والينز: «على الأقل! فقد توقفت ساعتي!».

ثم بشكلٍ غريزي، أخرج دينسمولد ساعته ولاحظ متفاجئاً: «وساعتي أيضاً. تشير العقارب إلى الساعة الثانية وإحدى عشرة دقيقة...».

قال والينز: «الثانية وإحدى عشرة دقيقة، أنا أيضاً!». ثم انزلق من كيس الفراء الخاص به بأسرع ما يمكن. وأضاف: «الموقد شبه فارغ، يعطي لهباً من دون حرارة!».

ارتعش أوتار والينز وأخذ رشفات قليلة من الشاي الساخن من القِدر المعلّق فوق الموقد. ثم أخذ مصباحاً كهربائي موضوعاً على صندوق صغير، وقرّبه من البارومتر. أصابه الخوف: كان عمود الكحول يغلي في الأنبوب الزجاجي، يهبط ويرتفع، ويصل إلى ثمانمئة مليمتر، وسبعمئة وخمسين، وسبعمئة في الدقيقة نفسها! فصاح والينز بصوتٍ عالٍ لدرجة أن عالم الفلك، للحظة، ظنّه مجنوناً: «تعال وانظر يا دينسمولد!».

عندما رأى دينسمولد أيضاً الاضطراب الغريب في الكحول، أصيب بالذهول وهمس: «ظاهرةٌ أرضية... شفقٌ قطبي. هذا مدهش!».

لاحظ والينز: «يجب أن نعرف ما مصير كوبياك!».

لم يستجب الفلكي، إذ كان غارقاً في تفكيرٍ عميقٍ.

تسلل والينز، بلا إصرار، إلى الممر الذي حفره الهندي عبر جدار الجليد. زحف على يديه وركبتيه، ثم تجاوز منعطفاً حاداً على يساره وخرج، بعد مترين، تحت أعمدة كثيفة من الثلج الناعم والمتماسك الذي كانت الرياح تدور به بشكلٍ شيطاني.

كان الظلام تاماً. ولكن نحو الجنوب الشرقي – الاتجاه التقريبي! - اعتقد أوتار والينز أنه ميّزَ وهجاً منتشراً ذا لونٍ أخضر، بدا وكأنه ينبعث من الأرض.

تساءل الجيولوجي، وهو يحني رأسه تحت عنف الريح: «هل كان وهماً؟ سراباً؟ ظاهرة جديدة للانكسار؟». انتزعه التفكير في كوبياك من افتراضاته. ونادى بصوته بأكمله على الهندي. لم يرَ شيئاً يتحرك، ولم يسمع شيئاً، ولم تعد الكلاب تنبح.

استمر صوتٌ واحدٌ فقط: صفير الريح الرهيب...

نادى: «كوبياك! كوبياك!». لكن لا شيء.

تحوّل انزعاج أوتار والينز تدريجياً إلى قلقٍ، قلق يقترب من الرعب، خاصة مع شعوره بنوعٍ من الضيق الغريب. بدا له أن اهتزازاً قوياً يهزُّ الأرض تحت قدميه والهواء الذي يتنفسه.

استعاد رباطة جأشه. نادى مرةً أخرى، لكن بلا جدوى.

في الظلام، سار نحو الزلّاجة التي كانت، على بعد خطواتٍ قليلةٍ من الكوخ، تشكّل سنماً أبيض ضخماً على الأرض المسطحة. وسرعان ما وصل إليها.

في أثناء مروره أمام الكلاب، سمع بعض النباح الخافت، مما طمأنه قليلاً. توقف أمام الزلّاجة وجدد نداءاته. وكانت بلا جدوى مثل سابقاتها.

أصبحت الاهتزازات التي شعر بها أكثر كثافة. وبدا له الآن أن هزّة حقيقية تهزُّ جسده، الأرض، الثلج.

قال في نفسه: «أنا مجنون!».

بعد أن أغمض عينيه، فتحهما مرةً أخرى ولم يرَ شيئاً غير عادي، باستثناء هذا التوهّج الأخضر الذي بدا، باتجاه الجنوب الشرقي، وكأنه ينبعث من الأرض نفسها.

نادى مرةً أخرى: «كوبياك! كوبياك!». أجابته الريح وحدها.

لقد سكتت الكلاب.

فجأة، شعر أوتار والينز بالخوف، خوف رهيب، خوف مذعور، خوف من أن يصاب بالجنون في هذا الظلام المحجوب بالثلوج.

وبدا له أن مخاطر رهيبة تنتظره. استجمع رباطة جأشه كلها وعاد ببطء نحو الكوخ.

بعد جهدٍ، عثرَ على فتحة الكوخ التي بدأ الثلج يسدّها بالفعل. نظّفها وانزلق إلى الممر وشقَّ طريقه إلى داخل الكوخ.

جالساً على صندوق، ومرفقاه على ركبتيه، كان أولاف دينسمولد ينظر إلى شيءٍ يحمله في يده.

سأل الجيولوجي بغباءٍ إلى حدٍّ ما، على الرغم من أنه رأى بشكلٍ واضحٍ أن زميله كان بمفرده في الكوخ: «ألم يعد كوبياك؟».

قال دينسمولد بإيجاز وهو يرفع رأسه: «لا. لكن بوصلتي مجنونة... تماماً. لم تعد الإبرة تشير إلى أيّ اتجاه.. أصبحت تشير نحو الأرض، وكأننا فوق القطب المغناطيسي..!».

تمتم والينز قلقاً: «نعم... نعم...!».

- ماذا؟ هل تريد أن تقول شيئاً؟

- لا...! لكنني شعرتُ قبل قليل باهتزازاتٍ معيّنة... ورأيتُ... شيئاً أخضر... وهجاً أخضر، قريباً جداً...

- أوه!

أوضح والينز: «نعم... ليس بعيداً عن الزلّاجة!».

سأل دينسمولد بعد لحظةٍ من الصمت: «وكوبياك؟».

أجاب والينز: «لا أثر له. ناديتُه مرات عدة... ذهبت إلى الزلّاجة... مررتُ أمام الكلاب... إنه ليس هناك!».

عقَّبَ دينسمولد: «سقطَ في الثلج بلا شك وغطّاه!». ثم تذمّرَ: «هذه البوصلة تقلقني... بعد البارومتر... الذي يغلي أكثر فأكثر! هذا غريب!».

قال واليتز: «وتوقفت ساعاتنا...! ألم تشعر بهذا الاهتزاز؟ كنتُ كمَن في حالة سَكَر قبل قليل!».

تمتم الفلكي: «ربما... لا أستطيع أن أقول...».

لا بد أن الريح فقدَت قوتها؛ لأن صوت عويلها يسمع بصعوبة.

جلس أوتار واليتز أمام الموقد، واستنتج: «أفضل شيء هو انتظار النهار؛ لن يتأخر كثيراً!».

بقي دينسمولد صامتاً. واصل مراقبة البوصلة الكبيرة التي يحملها في يده. ثم همسَ أخيراً: «أتساءل ماذا يعني هذا؟! يبدو أن البوصلة تتحرك بالتناوب على جانبي خط الاستواء المغناطيسي... انظر يا واليتز! الإبرة...! تشير تارة نحو الشرق، وتارة نحو الغرب...! هذا فضولي!».

كرر الجيولوجي: «هذا فضولي! لكن... كوبياك؛ هل تعتقد أنه مات؟».

من دون ردٍّ، هزَّ أولاف دينسمولد كتفيه بإيجاز.

ارتجف أوتار واليتز، ثم همس: «الجو بارد! إذا مات كوبياك، فسنكون في موقفٍ صعبٍ... بسبب الزلّاجة... والكلاب التي يجب الاعتناء بها!».

- البوصلة تحيّرني أكثر! كيف سنوجّه أنفسنا؟

- لدينا بوصلات احتياطية...

- لا بد أنها في حالة ارتباك مثل هذه...!

- النجوم...

- نعم، يمكننا التوجّه نحوها؛ ولكن في حالة الضباب؟ أخيراً، ربما تكون هذه الظاهرة مؤقتة فقط؛ سيكون من المثير معرفة السبب ووصفه...!

استنتج والينز: «لننتظر النهار! لن يتأخر كثيراً!». وبعد تلك الكلمات، زحف الجيولوجي إلى كيس نومه وحاول النوم من دون أن ينجح في ذلك. في حين واصل دينسمولد، هو ما يزال جالساً على الصندوق، مراقبة بوصلته.

رأى والينز فجأة دينسمولد يجثو على ركبتيه، ويدخل ويختفي في الممر الذي يربط داخل الكوخ بالخارج.

ثم عاد بعد أقل من عشر دقائق متذمراً: «إنه النهار! وجدتُ كوبياك!».

- أنت... أين هو؟

- ميتٌ؛ التهمته الكلاب! قتلتُ اثنين من هذه الوحوش لأجبرها على ترك بقاياه... سيطر عليّ الغضب! كنتُ مخطئاً! تعال وانظر. توقفت العاصفة!

مرعوباً، وما يزال فريسة لقلقٍ غامضٍ، انزلق أوتار والينز من كيس نومه، وشدَّ ملابسه المصنوعة من الفراء، ثم خرجَ وراء عالم الفلك.

في الخارج، كان الهدوء المطلق. لم يعد هناك شيء يذكّر بالإعصار الرهيب الذي حدث في الليل. أضاء نهارٌ رمادي أصفر، قاتمٌ، أرض الجليد.

على بعد خطوات قليلة، وجد الرجلان نفسيهما أمام الكلاب. على الأرض، بين الثلوج الملطخة بالدماء، يمكن رؤية بقايا كوبياك عديمة الشكل.

بدت الكلاب، وهي جالسة على قوائمها الخلفية، ساكنة، وآذانها مستدقة، وأعينها محتقنة بالدم، وأخطامها ترتجف، إنها قلقة. ولكنها لم تتحرك عندما رأت العالِمَين يقتربان.

سأل والينز وهو يمدُّ ذراعه نحو الجنوب الشرقي: «الـ... الشيء! هل رأيت؟».

تذكّر للتو التوهج الأخضر الذي رآه في أثناء الليل؛ لقد اختفى!

استدار أولاف دينسمولد. كان ما يزال يحمل بوصلته في يده، ثم كرر: «الشيء؟ نعم...! إنه يدفع الإبرة المغناطيسية إلى الخلف! تعال!».

ترك الرجلان الكلاب خلفهما، ودارا حول التلة البيضاء التي شكّلتها الزلّاجة المغطاة بالثلوج، وتقدما بخطواتٍ سريعة مسترشدَتين بالإبرة المغناطيسية. قطعا مسافة كيلومتر تقريباً من غير أن يكتشفا أيّ شيء.

الشيء، مهما كانت طبيعته، فهو أبعد مما كانا يعتقدان.

بدءا يشكّان في وجوده عندما تسلقا مرتفعاً في السطح الجليدي، ولاحظا، على بعد أمتارٍ قليلة منهما، تجويفاً على شكلِ قمع تقريباً، يبلغ قطره حوالي خمسة عشر متراً وعمقٍ مضاعف.

اقتربا منه.

بعد أن وصلا إلى حافة التجويف، تراجعا إلى الوراء مبهورين. في قاع التجويف، يوجد شيءٌ له مظهر زمرد ضخم، زمرد متعدد السطوح، متعدد الأوجه، يبلغ قطره حوالي سبعة أمتار. يبدو أنَّ الجوانب السداسية الشكل يبلغ قطرها أقل بقليل من عشرة سنتيمترات. كان هناك توهّج أخضر متناثر يتدفق منها.

أومأ أولاف دينسمولد برأسه ونظر إلى رفيقه الذي نظر إليه بدوره.

كلاهما، على مسافة خطر الانزلاق إلى قمع الجليد، اقتربا أكثر قليلاً.

كاد والينز أن ينزلق، وكان لدى الفلكي الوقت ليمسك به. انفصلت قطعة من الجليد بسبب حذاء والينز، وتدحرجت في القمع لتصطدم بالزمرد متعدد السطوح.

سُمِعَ نوعٌ من الشخير، ارتفع إلى نغماتٍ عالية، وتحوّل إلى صفيرٍ جافٍ تصاعد تدريجياً، وعدّلَ مجموعة من الأصوات المتناوبة بين هدوءٍ وشدةٍ كبيرين.

وفي الوقت نفسه، أخذ الشكل متعدد السطوح يغيّر شكله.

لم يصدق العالِمَان أعينهما بما رأياه، شاهدا كيف اختفت الأسطح، وأصبحت جدران الشيء ملساء كجدران كتلة من الكريستال، واكتسب الشيء نفسه شكلَ كرةٍ كاملةٍ. كرةٍ من الزمرد!

قال أوتار فالينز وهو يفرك عينيه: «أنا مجنون!».

كرر الصدى، من أسفل القمع: «أنا مجنون!».

تذمّرَ دينسمولد الذي كان ينظر إلى الشيء بشفتين مزمومتين وعينين واسعتين: «اسكت!».

كانت الكرة تغيّر شكلها ببطء!

تحوّلت إلى مخروطٍ، ثم مكعبٍ، ثم على التوالي، إلى مستطيلٍ متوازي الأضلاع، ثم هرمٍ، ثم أسطوانةٍ، ثم الأشكال الهندسية الرئيسة ثلاثية الأبعاد.

استمرَّت الأصوات في الانبعاث. كانت مجموعات من الدرجات اللونية ذات نعومة لا نهائية، نغمات قصيرة أو متوترة. نظر العالِمَان، ثابتين كتماثيل من الدهشة، من دون أن يجدا كلمةً واحدةً. وفجأة، توقّف سماع الأصوات. استعاد الشيء شكل متعدد السطوح، وهو الشكل الذي كان عليه في الأصل، والذي توهّجت جوانبه.

قال أوتار والينز: «إما أنّنا مجانين، أو أمامنا أروع شيء على الإطلاق. البشر الذين اخترعوا هذا والذين...».

- إنهم ليسوا بشراً!

- ليسوا بشراً؟

- لا! هذا... لا يمكن نقل هذا الجهاز إلى هنا. لا بد أنه يزن أطناناً عدة، و...

صاح والينز: «أوه! هل تعتقد أنه جاء... من كوكبٍ آخر؟».

عقَّبَ دينسمولد: «أعتقد ذلك...! يبدو أنه مصنوع من مادة غير موجودة على الأرض، من معدنٍ مغناطيسي - وبوصلتي هي الدليل! - وهو طيّع مثل الزئبق... وهذا ما يسمح له

بتغيير شكله. لا يتدفق، ولا شك أنه ينجذب نحو مركز الشيء بأجهزة لا ندركها! مغناطيسية أم جيروسكوبي[2]...؟ والشيء مأهول...! أولئك الذين في الداخل أرادوا أن يثبتوا لنا علمهم من خلال عرضهم الأشكال الهندسية الرئيسة أمام أعيننا...».

اعترف أوتار والينز الذي بدأ يتعافى تدريجياً من دهشته: «كل شيء ممكن، على الرغم من عدم وجود دليل على أن سكان الكواكب الأخرى يستخدمون الهندسة نفسها التي نستخدمها! أثبت هنري بوانكاريه أن الهندسة الإقليدية هي الأكثر ملاءمة، لكن يمكن وجود هندسات أخرى».

عقَّبَ دينسمولد: «أنا أعلم. لكنك تعلم أن الكواكب مثل الأرض؛ كروية... وأنها مكوّنة من العناصر نفسها التي يتكوّن منها كوكبنا... لماذا لا نفكر في أن العلوم على هذه الكواكب لم تتبع مسارات علومنا نفسها...؟».

همسَ والينز: «علينا النزول إلى القمع والتواصل مع هؤلاء الناس! لا بد أن لها وسائل نجهلها؛ هم الذين أعادوا إنتاج صوتي قبل قليل، عندما قلتُ إنني مجنون.. لا بد أنهم يسمعوننا.. آه! دينسمولد! حققنا اكتشافاً يساوي ألف مرة، بل مليون مرة، اكتشاف القطبين! أعتقد أننا سنكون أول البشر الذين سيتواصلون مع إخواننا من الكواكب الأخرى و...».

قاطعه الفلكي، وهو يحدّق في زميله: «هل أنت متأكد من أنهم كائنات مثلنا يا والينز؟».

---

[2] جيروسكوبي: آلية لحفظ توازن الطائرة أو الباخرة ولتحديد الاتجاهات. (المترجم).

ارتعش والينز قليلاً، وقال: «أعتقد ذلك!».

- إذا كان الأمر كذلك، فيجب أن نخشى كل شيء يا عزيزي! الإنسان هو الذئب للإنسان! ماذا لو كانوا سيقتلوننا؟

- جاؤوا كسفراء وليسوا أغبياء بما فيه كفاية لذبحِ أول كائنات يرونها! وسيكون لنا شرف الترحيب بالـ..

- بهدوء يا والينز! هذه الكائنات، أيّاً كانت، أتت لاستكشاف الأرض! كيف سيعرفون عند رؤيتنا أننا بشر؛ أي إننا أكثر الكائنات تحضّراً، والعقلانيون الوحيدون على هذا الكوكب؟ افترض بأن لديهم مظهر الكلاب؟ سيعتقدون أنَّ الكلاب هي ملوك الأرض وأنَّنا نحن...

لاحظ والينز: «عزيزي دينسمولد، أفضل ما يمكننا فعله لمعرفة ذلك هو الذهاب لنرى! أنت تخلق تناقضاً بذلك!».

اختتم الفلكي باختصار: «هيا بنا!».

كان من السهل جداً النزول إلى جوانب القمع، المبطنة بطبقةٍ سميكة من الثلج.

انزلق الرجلان، مستلقيين على بطنيهما، على السطح الأبيض، ممسكين بمرفقيهما وركبتيهما. في غضون ثوانٍ قليلة كانا في الأسفل، ولامست أقدامهما سطح الشيء.

وقفا، وسرعان ما أدركا أن متعدد السطوح كان يصدر حرارة لطيفة أدَّت إلى إذابة الجليد المحيط به، واستمرت في إذابته. لذلك نزل الشيء ببطء، محفوراً في كتلة الجليد التي يسميها البحارة "الثلم".

بعد أن ركع أولاف دينسمولد على الجسم المتعدد السطوح، خلع قفازيه وتحسس بيديه العاريتين أحد الجوانب. كان السطح ناعماً وأملس مثل أجود أنواع الساتان، وتنبعث منه حرارةٌ متناثرةٌ.

صاح والينز، الذي كان واقفاً يراقب الجسم متعدد السطوح: «أوه! هناك شخصٌ... رأيت... ظلّاً، مثل صورة الرجل... ثنائي القدمين... إنهم بشر... إنه إنسان يا دينسمولد! كنتُ...».

وسُمِعَ صفيرٌ قصيرٌ، تبعه ثمانية صافرات أُخرى. وبشكلٍ غريزي، تحرك العالِمَان جانباً. شعرا بالشيء يهتز تحتهما. استندا على الجليد، ورأيا أن متعدد السطوح يستعيد شكله الكروي.

في الجزء العلوي، ارتفع غطاءٌ يبلغ قطره حوالي سبعين سنتيمتراً، مدفوعاً بأربعة قضبان مستديرة. توقف الغطاء على بعد متر فوق الكرة.

من خلال الفتحة، ظهر كائنٌ لا يمكن تصوّره؛ بدا تماماً مثل رجل قصير القامة، لكنه في الواقع رجلٌ لا يملك سوى الجلد والعظام. نوع من القميص مصنوع من مادة رمادية كالرصاص، تشكّل جذعه وأطرافه.

لم يكن لديه وجه. بدلاً من العينين؛ هناك نظارات كبيرة ذات عدسات متعددة الأوجه. الأنف والفم مخفيّن تحت قناعٍ خشن بشعرٍ أشعث يبدو أنه مصنوعٍ من الذهب الأحمر. نصفا كرة من المعدن الرمادي، بحجمِ نصف برتقالة، يغطيان الأذنين. غطى القميص القدمين واليدين، والتي بدت، مثل بقية الجسم، مغطاة بطبقةٍ رقيقة من الرصاص.

وقف المخلوق الاستثنائي، بإيماءات بطيئة، مترددة، خرقاء، وغريبة تقريباً، واستند إلى غطاء الزمرد، وظلّ هكذا لبضعِ لحظات متأملاً العالمَين اللذين، من جانبهما، لم يفارقاه بأعينهما.

لا شك أن الكائن شعر بالطمأنينة لأنه اتجه نحوهما ببطء. وبدا كما لو أن باطن قدميه مزوّد بشفاطات، مثل قوائم الذبابة؛ لأنه لم ينزلق مرة واحدة على سطح الكرة الأملس والزلق.

قال أوتار والينز: «إنه من المريخ!».

لاحظ دينسمولد: «أو من عطارد!».

أيّاً يكن، فإن الكائن كان سينضم إليهما. عندما صار بينهما مدَّ ذراعه، لمسهما وتحسسهما. وهما ارتجفا بدورهما: كانت يدا المخلوق الغريب حارقة فعلاً! عند لمسهما، شعر العالِمَان بإحساسٍ غريبٍ بالراحة والخفة. وكأن هاتين اليدين تولّدان تياراً نافعاً يمنح قوة ونشاطاً!

استدار الكائن، وانحنى إلى الأسفل، ورسم أشكال هندسية متنوعة على الجدار الجليدي للقمع، في البداية بسيطة جداً، ثم أكثر تعقيداً، حلزونية، وأشكالاً بيضوية، ومنحنيات جيبية... توقف أخيراً وانتظر.

رسمَ أولاف دينسمولد، باستخدامِ سكين الجليد، أشكالاً هندسية عابرة أخرى.

لا بد أن الكائن فَهِمَ معناها جيداً؛ إذ أظهرَ على الفور العلاقات بينها من خلال أشكال هندسية جديدة.

ومما لا شك فيه أنه كان سعيداً بتواصله مع هذين الأرضيَّين، فأشار إليهما ليتبعاه، وتسلّق جانب جهازه الغريب، واختفى في داخله.

لاحظ أوتار والينز وأولاف دينسمولد، اللذان أصبحا خائفين بشكلٍ متزايدٍ، أن سطح الكرة أصبح الآن خشناً، مما سمح لهما بتسلّقه بسهولةٍ بالغة.

دخل الفلكي أولاً من خلال الفتحة، فسقط على مسافة أربعة أمتار تقريباً على أرضية مرِنة خفَّفت من سقوطه، وانضم إليه والينز على الفور تقريباً.

رأى الرجلان أنهما في حجرةٍ كرويةٍ يبلغ قطرها حوالي أربعة أمتار، تنتج جدرانها وهجاً فسفورياً أخضر، باللون نفسه الذي شاهده والينز في الليلة السابقة. على الرغم من ذلك، أشار الغريب بحركةٍ منه إلى ضيفيه نحو كرةٍ ثابتةٍ تطفو مثل بالون على مسافة متساوية بين الأرضية والسقف. كانت مصنوعة من مادة سوداء ولامعة تشبه العقيق إلى حدٍّ بعيد، وكان قطرها أقل من متر واحد.

لمسَ الكائن الكرة، فظهرت نقاطٌ مضيئةٌ على سطحها، مرتبةٌ بشكلٍ غير منتظم.

صاح أولاف دينسمولد بصوتٍ مخنوق: «أوه! إنها خريطة السماء... من... من فوق عطارد!».

سأل والينز: «من فوق عطارد؟!».

ردَّ دينسمولد: «نعم، من الكوكب الأقرب إلى الشمس، والذي يدور حولها في ثمانية وثمانين يوماً... وحيث لا بد أن تسود درجة حرارة رهيبة...! انظر! هناك الشمس... ومن ثم، على الجانب الآخر، الزهرة، الأرض، المريخ... رائع...! وأقمارٌ نجهلها... أوه!».

اختفت النقاط المضيئة فجأة. وأصبحت الكرة الصغيرة بأكملها فجأة مثل كتلة من الضوء. ثم ظهرت ظلالٌ بداخلها.

تعرّف العالِمَان تدريجياً على القارات الأرضية: الأمريكتان، القارة العجوز، أستراليا...

لكنَّ نوعاً من الضباب محا كل شيء، وكأنما وجدا نفسيهما أمام عدسة تلسكوب ضخمة، رأى الرجلان سهولاً ومحيطات وبلدات ومدناً ظهرت منازلها، الواحدة تلو الأخرى، بحجمها الطبيعي...

نطقَ دينسمولد الذي سافر كثيراً: «نيويورك...! هل ترى لونغ آيلاند؟ مبنى سينغر...؟ آه! ها هي جزيرة استوائية.. أرخبيل...! إنها برمودا بلا شك...!».

أوروبا... لندن... اختفى كل شيء.

أُضيئت الكرة السوداء مرةً أخرى من الداخل.

ميّزَ دينسمولد ورفيقه، وهما يلهثان، كوكباً كان كل شيء فيه أحمر، وتغطيه سحبٌ قاتمةٌ...

أوضح دينسمولد: «المريخ! إنه المريخ!».

هل كان هذا المريخ؟ من يستطيع أن يقول ذلك؟ ظهرت مدنٌ غريبةٌ، وهندسةٌ معماريةٌ معقدةٌ، من بينها كائنات تشبه البشر بمخالب سرطان البحر وعيون بارزة قافزة حولها، برفقة مخلوقات كابوسية أخرى.

ومرة أخرى، أصبحت الكرة سوداء من جديد.

بالقرب منها، كان هناك نوعٌ من قمعٍ كبيرٍ من مادة رمادية، مملوء بسائلٍ يشبه إلى حدٍّ ما الذهب المنصهر، معلّقاً فوق حامل ثلاثي الأرجل. أخذ الكائن الغريب السكين من حزام دينسمولد ورماه في القمع.

اختفى المقبض الخشبي على الفور، كما لو أن حمضاً قد أكله. اندفعت الشفرة الفولاذية إلى السطح، وفقدت شكلها، وأصبحت نوعاً من الإسفنج، وتغيّر لونها.

سحب الكائن القطعة المعدنية من الحوض ومدّها إلى الفلكي الذي صرخ بعد فحصها: «أوه! لكن... إنها فضة!».

أخذ أوتار والينز القطعة من يديه ورأى من دون أدنى شك أن النصل الفولاذي قد تحوّل إلى خام الفضة!

وبعد أن استعاد الغريب الاستثنائي هذه القطعة من خام المعدن، حوّلها تباعاً إلى الرصاص، ثم إلى الذهب، ثم إلى البلاتين...

همسَ دينسمولد متأهباً تقريباً: «وحدة المادة! إنهم يعرفون وحدة المادة!».

لكن الكائن أخذ يديه وجعله يلمس كرتين، تشبهان الماس، معلقتين على الجدار. وعلى الفور، شعرَ الفلكي بانحسار تعبه؛ جرى الدم إلى دماغه، وبدا له كل شيء واضحاً وطبيعياً ومنتظماً. كما بدا له أنه أصبح الآن قادراً على حلِّ أصعب المسائل.

بعد أن لمس أوتار والينز الكرتين، شعر بدوره بالانطباع ذاته بالرضا الجسدي.

لم يريا كل شيء بعد!

رفعَ الغريب، بواسطة آلية غير مرئية، فتحةً مُدمجةً بالأرضية. من خلال الفتحة، ميّز العالِمَان أذرع توصيل، ومكابس، وتروساً معقدة.

صاح والينز على الفور، منحنياً فوق الحفرة: «كل شيء مكسور هناك! هذا هو السبب الذي جعله يهبط!».

نهض الجيولوجي، فشعرَ بأنه شابٌ مجدداً. استعاد نشاطه في العشرين من عمره. ارتسمت ابتسامةٌ عريضةٌ على وجهه المتجهم، وصار دينسمولد الصارم والصامت في مزاجٍ مماثلٍ له.

أشار الكائن بيده إلى العالِمَين صندوقٍ موضوعٍ على الأرضية، ثم ضغط بخفةٍ على إحدى زواياه، فسُمِعَ شخيرٌ خافتٌ.

حاول الكائن، من خلال الإيماءات، شرح شيءٍ ما، شيءٍ لا بد أنه هامٌ جداً... نظر دينسمولد ووالينز المتوتران إلى بعضهما: لم يفهما، لا، لم يفهما!

استأنف الكائن، من دون كللٍ، شرحه وتفسيره.

موسيقى هادئة، نغمات متشابكة، بتناغمٍ ثلاثي، هزّت الهواء، أوتارٌ رائعة كما لم يجمعها أيٌّ موسيقيٍ أرضيّ من قبل...!

أضاءت الكرة التي ظهرت عليها خريطة السماء والمدن والأرض ومدن الكواكب. ظهرت فيها وجوهٌ نحيلةٌ، وجماجمُ بالكاد مغطاةٌ بطبقةٍ رقيقةٍ من البُردي، وأفواهٌ بلا أسنان، وعيونٌ صغيرةٌ ثاقبةٌ مثل كرات الزمرد... نظرت هذه العيون بفضولٍ وقلقٍ؛ اهتزت ملامحها، وتجهّمت.

كانوا بلا شك من سكان كوكب الزهرة أو عطارد، الذين رأوا، من خلال الكرة الغامضة، زميلهم الذي أرسلوه إلى الأرض، والذين لم يتمكّنوا من فعلِ أي شيء من أجله!

رأى أوتار والينز وأولاف دينسمولد، وقد شعرَ قلباهما بالقلق والتعاطف المؤلم، الكائنَ يتجه نحوهما، و- بلا شك- يحدّق فيهما من خلال نظارته الغريبة التي ظنّا أنهما رأيا عدساتها قد تلبّدت قليلاً.

همسَ والينز: «إنه يبكي!».

عادت كرة العقيق إلى اللون الأسود.

لعشر ثوانٍ تقريباً، ظلَّ العالِمَان ومضيفهما ثابتين. منحهم التوهّج الأخضر المنبعث من الجدران كسهمٍ بهالةٍ قاتمة، مظهراً شبحياً.

واصلَ الكائن تحديقه في الرجلين.

في النهاية، بدا أنه اتخذ قراراً وانحنى على الصندوق الذي أصدر قبل دقائق قليلة الموسيقى الاستثنائية. صدرت منه اهتزازاتٌ جافةٌ، مفصولة بفترات صمتٍ.

كانت هذه الاهتزازات طويلة أحياناً، وقصيرة أحياناً أخرى. اختلفت كل سلسلة عن سابقتها، سواء في شدة الصوت أو في سرعة إصدار الأصوات.

تمتمَ دينسمولد الذي كان يستمع: «هذه الاهتزازات تمثّل بلا شك العلاقة بين الأشياء، كل الأشياء... العالم ليس سوى مجموعة من الاهتزازات يا والينز، أنت تعلم ذلك؛ الأبطأ هي الصوتية ثم الضوئية... الصوت والضوء والمادة ما هي إلا اهتزازات تختلف شدتها فقط... تلك التي نسمعها تمثّل – أتخيّل ذلك - جميع حالات المادة، الصلبة، السائلة، الغازية، الصوتية، الضوئية، الكهربائية... السرُّ العظيم أمامنا، وهذا الرجل... هذا الكائن يعرفه! انظر...!».

على الكرة السوداء، يمكن تمييز الظلال. ظهرَ وميضٌ أرجواني مبهرٌ، فغمغمَ عالم الفلك: «اهتزازات ضوئية!».

تشكّلَ نوعٌ من الصنوج شبه الكروي: رآه العالِمَان يهتز، في حين رنَّت موجاتٌ صوتيةٌ منبعثةٌ من الصندوق بشكلٍ أبطأ...

لم يكن هناك أي خطأ: كان الكائن الاستثنائي يحاول جاهداً أن يجعل البشريان يفهمان الأطوال المختلفة للأمواج الضوئية والصوتية.

لا شك أنه كان يراقب تأثير تجربته على وجهيهما. لكن هل كان يفهم التعبيرات البشرية؟ من سيعرف ذلك؟

فجأة، توقّف عن تجربته الرائعة، وكأن فكرةً ما قد أصابته، فانحنى. ومن خلال الفتحة المفتوحة في الأرضية، أظهر لضيفيه التروس المنحرفة، وقضبان التوصيل المشوّهة للآلية الغامضة التي رأياها بالفعل.

تمتم والينز وهو يهز رأسه: «المحرك الذي سمح لهذه الآلة بالوصول إلى هنا معطل، وهذا العطاردي المسكين – إذا كان عطاردياً – يعاملنا كمتوحشَين بائسين لا يمكنه الاستفادة منهما بشيء! علمُنا لا يقارن بعلمه! يجب أن نعيده إلى سيريوس ثم نعود ونحصل على الجهاز... أو على الأقل نفككه! تحتوي هذه القشرة على حلول المسائل العلمية الرئيسة التي درسناها منذ بداية العالم... إذا تمكّنا من فَهمِ هذا العطاردي وأن يفهمنا، فربما يكون العلم البشري قد ربح عشرة قرون! ربما! تخيّل أن هذا الكائن يعرف الرؤية عن بعدٍ من خلال الأثير، وأنه يستطيع التواصل مع الكواكب، وأنه...».

قاطعه دينسمولد: «نعم، ولكن إذا مات، أو متنا، سيضيع كل هذا!».

سُمِعَ صفيرٌ خفيفٌ.

الكائن الذي وضع نفسه تحت فتحة الكرة، ارتفع ببطءٍ، بشكلٍ مستقيمٍ إلى الأعلى، كما لو أنه محمولٌ ببالونٍ. تحته، ظنَّ الرجلان أنهما رأيا ظلّاً، ظلّ الأسطوانة التي هبطَ عليها. بعد أن وصل الكائن إلى حافة الفتحة، تسلقها بشكلٍ أخرق واختفى في الخارج. ظهرت ذراعاه من خلال الفتحة وجعلت الرجلين يفهمان أن يتموضعا تحت الفتحة كما فعل للتو.

كان والينز الذي يتمتع بعقلٍ أكثر حدةً من عقل رفيقه، أول من خمَّنَ ما طُلِبَ منه. شعرَ على الفور بأنه يُرفَع، وكأنه على أرضية المصعد. ولكنّ قدميه لم تستقرّا على أي شيءٍ مرئي.

بعد أن تسلّق حافة الفتحة، وقف على الكرة بجانب الكائن الغامض. وانضم إليه دينسمولد بعد وقتٍ قصيرٍ.

حددَ الكائن على الفور بيده الممدودة إلى الجهات الأربع، وأشار إلى الشمس التي حرك يده حولها كأنها ترسم مداراً ما.

بعد ذلك، بحركاتٍ خرقاء، نزلَ على طول الكرة ووجد موطئ قدمٍ في أسفل قمع الجليد الذي بدأ في تسلق ميله. تساءل العالِمَان عما يريد فعله، وتبعاه من دون أن يقولا كلمة واحدة. وصل الكائن إلى سطح حقل الجليد ووقف مستقيماً.

رأى دينسمولد ووالينز فجأة الكائن يلتوي ويتراجع تحت تأثير رعبٍ فظيعٍ.

ظهر اثنان من الكلاب التي كانت جزءاً من فريق الزلّاجة فجأة. فزمجر دينسمولد: «إلى الوراء، أيها الوحشان القذران!».

فات الأوان! قفزَ الكلبان معاً على حلقِ الكائن، فأغلقَ الكائن يديه عليهما.

غطى صفير نباح الكلبين، وانبعثت نفخة من دخانٍ أخضر. وانهارت المجموعة - الكائن والكلبين - على الجليد، بعد أن ضربها البرق.

متجمدين، كان العالِمَان ينظران. لم يعودا يفهمان أو يعرفان..

كانت عيون الكلاب قد تحجّرت بالفعل. لقد ماتا بالفعل... لكن ماذا عن الكائن الغامض؟

استعاد دينسمولد أولاً بعضاً من رباطة جأشه. اقترب من الجسد الخامل للفرد الاستثنائي ولمسَ ذراعه. صدمةٌ طفيفةٌ، مثل تلك التي ينتجها تيار كهربائي، جعلته يقفز. فتراجع إلى الوراء، شاحباً.

لم يعد الكائن يتحرّك.

صاح والينز بصوتٍ أجش: «ولكن... إنه يحترق!».

كان يقول الحقيقة؛ تصاعدت سُحب البخار من الجسد الممدد على الجليد.

العالِمَان اللذان شعرا بأنهما على وشك الجنون، رأيا القميص المعدني الرمادي يتقلص، وينفتح، وينفجر، ويكشف عن لحمٍ أحمر جافٍ؛ سمعا أصوات طقطقة: كانت سماعات الأذن والنظارات والأقنعة تذوب تحت تأثير الحرارة التي ظلّ مصدرها غير مرئي. وحول

الجسد بالكامل، تحوّل الجليد إلى سائل، مكوِّناً جداول صغيرة من الماء الموحل، تتجمد على بعد أمتارٍ قليلة تحت تأثير درجة الحرارة المحيطة القاسية. كان شعر الكلبين ملتهباً، امتزجت رائحته المميزة برائحة نفاذة ومعدنية تنبعث من جثة الكائن المجهول.

في أقلِ من خمس عشرة دقيقة انتهى كل شيء. لم يتبقَّ على الجليد سوى جثتي الكلبين اللتين تأكلهما النار بين الحين والآخر، وبعض الأطراف المحروقة التي تشبه حطام القصدير.

قال والينز بجدية: «أتساءل إذا لم أكن مجنوناً!».

أكد دينسمولد: «نحن لسنا مجانين! لنترك كل ذلك، وإلا أصبحنا مجانين! سنحدد موقعنا ونعود بخطواتٍ مسرعةٍ نحو سيريوس. في غضون عشرة أيام، يمكننا أن نكون هناك...».

- البوصلة؟

- أوه! نعم! حسناً! إذا لم نتمكّن من استخدام البوصلات، سنطلب المساعدة من الناس عن طريق جهاز الراديو، ونحدّد لهم موقعنا.

- ربما سيكون هذا أفضل!

من دون مزيدٍ من الكلام، توجّه الرجلان نحو الزلّاجة. وخلال الساعات القليلة التالية، أزالا الطبقة السميكة من الثلج التي غطتها. كانت مهمة صعبة ومرهقة؛ حيث أدى البرد

الشديد إلى تصلّب الثلج الذي صار من الصعب كسره. وأخيراً حُرِّرَت الزلّاجة، وتوصّل العالِمَان إلى جهاز الراديو.

من دون أخذ لحظة راحة، ومن دون حتى تناول الطعام، ركَّبا الهوائي القابل للفكّ، المصنوع من أنابيب دورالومين المتشابكة، والذي أحضراه معهما، وثبتاه عن طريق أسلاكه.

حلَّ الليل، ليلٌ مظلمٌ، شاحبٌ، ضبابيٌ، عندما انتهيا أخيراً.

سخّنا بسرعة بعض الشاي واللحم المجفف في الكوخ الذي قضيا فيه الليلة السابقة، وابتلعا كل شيء وعادا إلى العمل على ضوء مصابيحهما الكهربائية الصغيرة.

كانت كل الجهود التي بذلاها عبثاً؛ أدرك أولاف دينسمولد أن الجهاز لم يعد يعمل؛ إذ فرغت البطاريات فيه. البطاريات المضمونة التي اختُبِرَت بدقةٍ قبل المغادرة!

كان من المستحيل إرسال أيّة رسالة.

همسَ الفلكيُّ، بعد أن فحص البطاريات مرات متكررة: «لا شيء يمكن فعله! لا بد أن الشيء قد تسبّب في تفريغ البطاريات... كل ما علينا فعله هو العودة إلى سيريوس!».

لم يرد أوتار فالينز. نظر إلى زميله، وفهمَ كلٌ منهما الآخر. كانا يفكران في البوصلات المجنونة. بات عليهما الاسترشاد بالنجوم؛ إذا لم يكن هناك ضباب، فهذا ممكنٌ، ولكنه صعب. لأنه بسبب عدم الدقة في حساباتهما، كان من المرجح أن يتجوّل الرجلان لفترةٍ طويلةٍ عبر أرض الجليد قبل الوصول إلى سفينتهما. ولم تكن إمداداتهما أبدية.

أعلن دينسمولد: «سنحدّد موقعنا كلما أمكن ذلك! سنعدّل اتجاهنا مرات عدة حسب الضرورة، ولكننا سنصل! إنه مصير البشرية الذي نحمله بين أيدينا!».

همسَ الجيولوجي: «نعم... هذا صحيح!».

وزّعا حصّةً من سمك السّلمون المدخَّن على الكلاب، وتحقَّقا من ربطها؛ لأن الحيوانين اللذين هلكا مع الكائن فقط قد هربا، وعادت الأخرى إلى كوخهما الجليدي.

تحدثا طوال الليل من دون أن يشعرا بالبرد أو التعب. إذ شغلت عقليهما الإمكانيات الرائعة التي سيقدمها الجهاز الاستثنائي القادم من السماء للعلم. سيوضح عدداً لا يحصى من المسائل البيولوجية والفلكية والجيولوجية. ستتقدم الرياضيات. ستُعرف ماهية الكهرباء، وماهية المادة، وماهية الحياة نفسها...!

طالما كان هناك إنسان على الأرض، وحتى كائن على الكواكب المجاورة، فلن تموت أسماء أوتار والينز وأولاف دينسمولد!

يا له من مجد! مجد يفوق البشرية، يفوق كل شيء آخر!

في النهار، تناول الرجلان بسرعة بعض الشاي ومسحوق البيض المجفف. ثم خرجا. ظلَّ الطقس جيداً.

من دون حماقة، أعاد العالِمَان تجهيز معدّات المخيم. حمّلاه على الزلّاجة وربطا بها الكلاب. واتجها شمالاً نحو سيريوس.

سرعان ما أدركا أنهما لن يسيرا بالسرعة التي كانا يعتقدانها. إذ تقدّمت الكلاب ببطء، بعدما تقلّص عددها إلى أربعة، وخمّنت غريزياً عدم خبرة مرشدَيها، فصارت تتوقّف عندما ترى ذلك مناسباً، ولا تبدأ بالسير مرةً أخرى إلا عندما ترغب في ذلك.

ظلّت البوصلات كلها في حالة ارتباك، ووجبَ عليهما الاسترشاد بالشمس.

عند الظهر، أمرَ دينسمولد بالتوقف وقام بتحديد الموقع. أدرك أنَّ الزلّاجة قد تحركت حوالي ثلاثة عشر كيلومتراً باتجاه سيريوس. كان هذا حصيلة نصف المرحلة! بقي أكثر من أربعمئة كيلومتر ليتمّ قطعها قبل الوصول إلى السفينة، أربعمئة كيلومتر في خطٍ مستقيمٍ، أي أكثر من ستمئة في الواقع...

أعلن والينز: «علينا تقنين الكميات!».

ردَّ دينسمولد: «نعم».

تناول الرجلان الطعام. وانطلقا من جديد، ببطءٍ شديد كما كانا دائماً..

تمَّ عبور اثنتي عشرة مرحلة. اثنتا عشرة مرحلة؛ أقل من مئة كيلومتر! لأنه في مناسبات عدة، ضلَّ المستكشفان اللذان غلّفهما الضباب، طريقهما ورجعا إلى الوراء! ولم تعد البوصلات في حالة ارتباك الآن، ولم تعد تعمل على الإطلاق، حيث فقدت الإبرة – لسببٍ غير معروف – كل خصائصها المغناطيسية.

ولكن الطعام يمكن أن يكفي لمدة شهرين عن طريق التقنين... لسوء الحظ! في إحدى الليالي، بينما كان العالِمَان المنهكان نائمين، أقامت الكلاب وليمة بعد أن فكّت رباطاتها

الفضفاضة. فقضَت على اللحم المجفف والدقيق والسلمون والبيض المجفف، كما أفسدت ما لم تلتهمه.

عندما استيقظا، رأى دينسمولد ورفيقه للوهلة الأولى الكارثة. كانت الكلاب قد فرَّت، ولم يتبقَ عملياً أي شيء.

علّقَ دينسمولد وهو ينظر إلى زميله بعينٍ باردة: «أنتَ من ربطَ الكلاب بالأمس!».

احتج الجيولوجي بكلِ حسن نية: «ربطتها جيداً! لا أعرف ماذا حدث!».

قال دينسمولد من دون إصرار: «لنجمع ما يمكن إنقاذه. إنه ليس كثيراً، لكننا لن نتمكّن من حمل المزيد، والزلّاجة ثقيلة جداً بحيث لا يمكننا حتى التفكير في أخذها معنا!».

ماذا بقي؟ ما يكفي للعيش بنصف الحصة لمدة أسبوع تقريباً، ربما، وربما أكثر! من دون تبادل كلمة واحدة، جمع الرجلان البقايا من جميع الأنواع المتناثرة على الثلج.

شهية كلاب ألاسكا الكبيرة هائلة. لم تترك الحيوانات الكثير؛ في ساعةٍ واحدةٍ انتهى كل شيء.

مثقلين بوزنِ كيسي نومهما ومؤنهما الضئيلة، انطلق العالِمَان من جديد على أرض الجليد التي لا نهاية لها.

حملَ والينز الموقد وإمدادات الكحول، وتولّى دينسمولد مسؤولية آلة السُدس ومقياس الوقت والكتب اللازمة لحساب الموقع.

ولحسن الحظ، ظلَّ الطقس جيداً. وتمَّ عبور ستِّ مراحل. كانت المؤن تتضاءل بسرعةٍ؛ فلكي يتمكّن البائسان من المشي، كان عليهما أن يأكلا. لا مزيدَ من الضباب. كانا يتحركان الآن في الاتجاه الصحيح.

أعلن دينسمولد ذات يوم بعد تحديد الموقع: «لم يتبقَ سوى مئة وواحد كيلومتر! أرض الجليد مسطحة هنا؛ يمكننا فعل ذلك في ثلاثة أيام...».

نعم. ولكن لم يتبقَ سوى كمية لا تذكر من اللحم المجفف!

في ذلك اليوم، ابتلع كل واحد منهما خمسين غراماً من الطعام، وأعدّا مما تبقى من كحولهما كوباً أخيراً من الشاي.

على الرغم من أن دينسمولد هو الأكبر سناً، فإنه ما يزال يتمتّع ببعض القوة، لكن يبدو أن والينز قد وصلَ إلى حدود الضعف النهائية.

قررا أن يرتاحا لبضعِ ساعات قبل الانطلاق من جديد.

بمعدةٍ فارغةٍ، وصدغاهما ينبضان بفقر الدم، استلقيا جنباً إلى جنب في كيسي نومهما. نحو منتصف الليل، رأى والينز الذي لم يكن نائماً، فجأة رفيقه يخرج من كيس نومه، ويضع الحزمة الصغيرة التي تحتوي على بقية اللحم المجفف في حزامه، ويطوي كيسه ويثبّته على كتفيه. ففَهِمَ أن دينسمولد الذي وبّخه في مناسبات عدة على تأخيره، سيتخلّى عنه من أجل المضي قدماً بسرعةٍ والاحتفاظ لنفسه بما تبقى من المؤن التي تشكّل موردهما الأخير. فناداه، رغماً عن نفسه: «دينسمولد!».

استدار الفلكي، وقال ببرود: «آه! هل أنت مستيقظ؟ حسناً! نعم، سأتركك! كلانا سنهلك لو انتظرتك، ولن يكون هناك أيّ فائدة! سأحاول الوصول بخطاً سريعةً إلى سيريوس. وسنعود للبحث عنك... وداعاً!».

قال والينز: «دينسمولد! لن تفعل هذا! لن تتخلّى عني...».

أعلن الفلكي الذي توقف: «سأفعل ذلك. هذا واجبي. العلم قبل كل شيء! أنت تؤخّرني! لو بقيت معك لهلك كلانا...! وداعاً!». ثم ابتعد بخطاً سريعةً.

تلمّسَ أوتار والينز حزامه. وعلى الرغم من ضعفه، كان يحتفظ بمسدسٍ آلي لاستخدامه في حالة ظهور فريسةٍ ما. لقّمه، ورفع ذراعه، وصوّب، ثم ضغط على الزناد.

انفجار، صرخة.

انهار أولاف دينسمولد على الجليد مع وجود ثقبٍ في جمجمته، حيث لم يعد يتحرّك.

بعد أسبوعين بالضبط، اكتشفت البعثة الصغيرة التي أرسلتها سفينة سيريوس، بحثاً عن العالِمَين اللذين لم يعودا، جثة السيد أولاف دينسمولد ممددة على الجليد، مع رصاصةٍ في الرأس.

وماذا عن أوتار والينز؟

هل مات من الجوع؟ من البرد؟ هل ابتلعه صدعٌ ما تحت عاصفة ثلجية؟ لم يُعثر عليه أبداً.

وفي مكانٍ ما في القطب الجنوبي، تستمر الآلة المجهولة، القادمة من مكانٍ لا يعرفه أحد، تحت تأثير الجاذبية - ولكن هل تخضع لها؟ – في الغوصِ في الجليد وتبتلع معها الأسرار التي ظلَّ الإنسان يبحث عنها منذ آلاف القرون والتي سيعرفها، ولكن متى؟

مدين حرامي

مترجم سوري

مترجم يحمل ماجستير في اللسانيات التطبيقية – تعليم اللغة الفرنسية للأجانب من جامعة رين الثانية – فرنسا (2005 – 2007)، ودبلوم الدراسات الأدبية (2002 – 2004)، وإجازة في الأدب الفرنسي (1998 – 2002) من جامعة حلب – سوريا.

منذ عام 2009، يشغل منصب مدرّس في ماجستير التأهيل والتخصص FLE بالمعهد العالي للغات في جامعة حلب .كما عمل مترجمًا باللغتين العربية والفرنسية لدى منصة جدل للترجمة – الإمارات (2022 – 2025)، ومترجمًا للأفلام والمسلسلات في تنوير للترجمة – سوريا (2020 – 2022)، تولّي قسم اللغة الفرنسية في دار كينا للترجمة والنشر – الإمارات عام 2025.

صدر له

من الفرنسية إلى العربية

توماس سانكارا (2025) تحرر المرأة والنضال من أجل تحرير أفريقيا (دار كينا: الإمارات).

سيمون فايل (2025) انتظار الله (دار أما بعد: السعودية).

توماس سانكارا (2025) نحن ورثة ثورات العالم (دار كينا: الإمارات).

بينجامين رابييه (2024) قصص فلكلورية فكاهية (دار لازورد: العراق).

غودول (2023) صاحبة المكتبة (دار دريم بوك: الكويت).

إميل غابوريو (2025) عجوز البانتيول (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

جول ليرمينا (2025) أكسير الحياة (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).
جول ليرمينا (2025) اللغز (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).
جوزيه موزيلي (2026) غرائب المجرة (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

من العربية إلى الفرنسية

أسامة المسلم (2022) بساتين عربستان (دار أدب بوك: السعودية).
أسامة المسلم (2024) خوف (دار أدب بوك: السعودية).

إصدارات أخرى

لخطواتك رائحة الكينا (2025) ديوان شعري مشترك (دار كينا: الإمارات).

STORIES

في «غرائب المجرة» نعود إلى زمن كان فيه الخيال العلمي يفتح أبواب المجهول بثقة المغامر وفضول العالم. يقدّم جوزيه موزيلي حكايتين تنتميان إلى ذلك العالم الذي تتجاور فيه المغامرة مع الاكتشاف، وتتحول المعرفة العلمية إلى طريق نحو المجهول.

في «مدينة الأعماق»، ينفتح البحر على سرّ لا يعرفه البشر، حين يقود غرق سفينة إلى اكتشاف عالم خفي في ظلمات المحيط، تسكنه كائنات ذكية تختلف عن الإنسان، لكنها تمتلك حضارة وقدرة على الفعل والتدبير. أما «رسول الكوكب» فتأخذنا إلى الجليد القطبي، حيث تتحول رحلة علمية إلى مواجهة مع حدث قادم من الفضاء، ولقاء بين عالمين تفصل بينهما حدود أعمق من المسافة.

يجعل موزيلي الخيال وسيلة لاختبار حدود المعرفة البشرية. شخصياته تواجه ما تعجز عن تفسيره، وتجد نفسها أمام أسئلة تتجاوز العلم المألوف، فيما تظل الرغبة في الفهم والاكتشاف هي القوة التي تدفع الحكاية إلى الأمام.

تأتي هذه الترجمة العربية لتعيد تقديم عمل ينتمي إلى مرحلة مبكرة ومهمة من تاريخ الخيال العلمي، مرحلة تشكلت فيها صورة الإنسان الحديث وهو ينظر إلى البحر والفضاء والقطب والمجهول بعين المكتشف.

نضع «غرائب المجرة» بين يدي القارئ العربي بوصفه رحلة إلى أدب ما زال يحتفظ بسحره الأول: سحر الحكاية، والدهشة، واحتمال أن يكون العالم أوسع وأغرب مما نتصور.

JOSÉ MOSELLI

LA CITÉ DU GOUFFRE
SUIVI DU MESSAGER DE LA PLANÈTE

Translate it from français by Medyan Harami

9 781291 550122

Jidar
Culture & Publishing